رواية

أيامي الأخيرة

د. إيهاب سلام



أيامي الأخيرة

رواية

د. إيهاب سلام

الشريط الأول

لم تعد ذاكرتي تسعفني مثلما كانت تسعفني من قبل . دب العجز في هذا الجسد الغليظ السمين ذي الرأس الكبير . وأنا أروي قصتي في هذا المسجل الصغير . وأبدأ الأحداث مـن النهاية إلى البداية . حقاً في ذلك قلب للأوضاع ، لكن ذلك ما تجود به ذاكرتي ، كأنما يجب أن تذهب إلى مصـب النهـر لترتوي بنبعه . وأحسنت ابنة أخي القادمة من السـعودية أن اشترت لي ذلك المسجل حتى أتسلي في شيخوختي به . إن الشيخوخة تزحف بسرعة إلى كل أجزاء جسدي . وأجد ميلاً في نفسي أن أتسلي في رواية مأساة حيـاتي النـادرة . لـم يحدث في عائلتي مثلها ولذلك فإن ألمي يدفعني إلى روايتهـا لعلها تكون عظة لأحفادي إذا ما تسنى لهم سماعها .

صعدت درجات السلم المتآكلة ، وفتحت الباب وشهقت . كنت أعرف مضمون أسباب شهقتي . كانت الشـقة التـي أسكنها خاوية على عروشها . مجردة من كـل أثـاث . إلا دولاب صغير وسرير سفري لا يصلح لأنسأن مثلي . وحينما سألني أخي كمال :

- من فعل ذلك ؟ ..

قلت له ، والدموع ترقص في عيني رقصة الألم :

- هذا من فعل هشام ابني .

وعاد يسأل :

- ولم يفعل هشام هكذا ؟ ..

لم أجب . لا أعرف ما إذا كنت المسئول أم أن هشاماً هو المسئول . أم أن المسئولية ضاعت ولم يعرف أحد صاحبها . كانت نهاية المطاف عند هشام . وكأن يجب أن تكون عنـده بداية المطاف . لكنه لم يقدم علـى ذلـك . رآنـي شـيخاً مضعضعاً ، ذبل نور عينيه ، حتى اصبح يمشـي يـتلمس . وارتعشت قدماه حتى أنه لم يعد يقوى على أن يقف طويلاً . وضاعت الصورة التي كان يقف فيها هذا الجسد ساعات في صفوف بيع اللحوم أو الدجاج في الجمعيات الاسـتهلاكية . وحلت صورة أخرى اصبح فيها الجسد خائراً خاوياً . قال :

- هيا لتكن إقامتك عندي يا أبي .

قلت بوضوح :

- لكن بيتك صغير يا ولدي .

قال بحزم :

- ليكن .. سوف نضع حجرة الاستقبال في الصالة مـع حجرة الطعام وسوف تكون لك الحجرة بفراشها .

" ألم أعرض عليك يوماً أن أبيت ولو على مرتبـة فـي حجرة الاستقبال فرفضت متعللا بضيق المكان ."

وعدت أضع العقبات أمامه :

- لكن ما صنع الحداد مقام بيني وبين زوجك .

- نبيلة أصبحت هادئة الأعصاب الآن .. تغيـرت .. ولا مانع أن تستضيفك حتى نهاية العمر .

- وأولادك يحتاجون إلى الراحة .. وأنا مقلق للراحة .

- أتريد أن أقبل أن تبقي لدى أخت لا تريدك .

تكورت الدموع في عيني . حينما لمست المأساة واضحة . بهيرة ابنتي الصغرى لا تريدني . طردني زوجها بوضوح .. دون لف أو دوران . دخل أمامي ومزق المرتبة والوسائد التي أنام عليها وجاء بيد الهون وخلع السرير . وطفق يهشمه .. حتى تفككت الأخشاب وتبعثر قطعاً . وقال لي : لا مكان لك عندي . وبهيرة تقف جامدة لا تريد أ ن تتدخل فيما يفعله زوجها .. هل أصبحت منفراً لهذه الدرجة ؟ .. طلبت هشاماً بالهاتف بعد لأي ، لأني لم أعد أشاهد قـرص الهـاتف ولا أرقامه بسبب الدموع المتزاحمـة فـي عينـي ، وبعـد أن استجمعت قواي التي تشتت . وحالت الدموع دون الرؤيـة ، وقطع هول الموقف أسباب الاتصال . وقلت لهشام : دبرني .. زوج أختك لا يريدني .. طردني .. تعـال خـذني إلـى بيتي .

هربت روحي من البيت الذي لا يريدني جهاراً إلى بيـت يرفضني ضمناً . نبيلة بنت أخت زوجتي ، وهشام هو ابـن خالتها ، لكن الوئام بيننا مفقود .. منذ باكورة الزواج . لـم تكن تعاملني إلا بجفاء كأني شخص صفيق . مع أنهـا قبـل الخطوبة كانت تكثر من الأحاديث معي . كنت زوج خالتهـا المحبوب . وبعد أن دست خاتم الخطوبة في يـدها اختلـف الوضع . بررت زوجتي وقتها السبب بـأن نبيلـة عصـبية الطبع وخلقها يضيق في معاملاتها مع الناس . وتعامل أبويها بهذا الجفاء ، رغم أن تعاملها مع أبويها لم أشاهد فيه صورة

واحدة بهذا اللون . وشاهدت الجفاء فـي كـل نأمـة فـي معاملاتها لي ، لذلك كنت أتجنبها حينما تزورنا فـي بيتـي صدفة .. أو بمناسبة . وهكذا اضطرني الزمان - ويا لك من زمان ! - أن أدخل بيت الجافيـة . صـافحتني وصـافحتها أطراف أناملي التي كانت ترتعش وقلبـي يتـوجس منهـا . وكانت نظراتها تعبر عن استياء تخفيه تحت غلالة داكنة من ابتسامة صفراء توحي بالترحيب . ووجـدت فعـلاً حجـرة الجلوس في الخارج في الصالة . وحجـرة الاسـتقبال بهـا سرير ودولاب وسجادة قديمة وعدد من المقاعد ، رغـم أن أحداً لن يفكر أن يجلس عليها فيما بعد . أعدت للإيهام بـأن بشراً سوف يجلسون عليها .

سألت : ألن يضايقكم هذا النظام ؟ ..

قالت بحزم : أبداً يا عمي .

جاءت ابنتها الكبيرة وصافحتني . وولداها الصغيران ومدا إلي يديهما بالمصافحة . ولا قبل هناك ، ولا جسد تضـمه ، ولا حنان يمكن أن ترى طلعته . جفاف عاطفي ظاهر ورثوه عن أمهم دون تعديل . مع أن هؤلاء الأولاد كنت أضمهم في بيتي وألثم خدودهم .. لكن جفاء أمهم أمتـد إلـيهم. تعلمـوا قواعده منها ، وطفقوا يطبقونها بحذافيرها . ووضع هشـام ملابسي وقال لي : أتركك تستريح . وقفل باب الحجرة كأنما يقفل باب سجن . هكذا يجب أن يسجن العجوز فـي أيامـه الأخيرة بعيداً عن عيون الناس ، فلا يرون وجهه الأغبـر ،

ولا يسمعون تخريفه ، ولا يلمسون بطئه وعجـزه . إنهـم يحاولون الابتعاد عن الشفقة والألم .

جاء هشام يوماً ليطلعني على خطة جديدة :

- أريد أن نعيش كلنا في بيتك .. في شقتك ، فهي واسعة . ولن يحدث فيها أن يمتعض أحد من وضعه .. أليس ذلـك مناسباً ؟ ..

- وهو كذلك يا هشام .

- لكنك تعرف أن البيت قديم . وسقف الشقة غير متين ، ويحتاج إلى ترميم . بل يحتاج إلى سقف أسمنتي قوي يحمينا من الأمطار ويحول دون لفح الشمس .. لعلك تذكر ما عنيناه من هذا السقف اللعين أيام المطـر .. وفـي ذروة حـرارة الصيف .

- ما المانع ؟ .. ابدأ التنفيذ .

يبدأ التنفيذ دون أن يطلعني على شيء . ويأتي في يـوم يقول لي فيه :

- أنت تعرف يا أبي أنك شريك على المشاع فـي الـدار التي تسكن إحدى شققها .

- نعم أعرف .

- شركاؤك أبناء عمي المرحوم .. وعمتـي .. وعمـي الآخر .

- نعم ..

- وتعلية السقف بالأسمنت سوف تتكلف مبالغ باهظـة .. وهذه المبالغ سوف تدفعها نبيلة .. وهي تريد أن تضمن حقها

في أن تكون الشقة - على الأقل - باسمها لأنك لن تسـتطيع أن تدفع شيئاً ..

يريد أن يكتب الشقة باسم زوجته ، وأنا أدرى الناس بأن المال ماله . لقد تغرب دهراً في البلاد العربية وجمع ثروة لا بأس بها ، وأدخر ، واشترى أرضاً زراعية وأسـهماً ، ثـم يدعي أن النقود تخص زوجته . لعله أعطاها إياهـا دون أن أدري .

أقول على الفور :

- ما المانع ؟ ..

من سيخلد فيها فليبك عليها . أما أنا ففان . قدمي قريبـة من القبر ، فليأخذ الشقة . وليأخذ ما بهـا . لكـن وصـلت الأنباء إلى الأختين : بهيرة وزهيرة . فما كانا منهمـا إلا أن قلبا الدنيا على هشام . صراخ في الهاتف . وصراخ فـي الشوارع وعند الأقارب والأصدقاء . جدل عقيم لا ينتهـي .حرب اعتي من الحرب العالمية الثانية وأقوى من الحـرب النووية القادمة. لكن كل ذلك بعيد عني ، لم أعـرف بـه ، كانت الوغى تدور خارج أسوار سجني بعنف دون أن تهـدم جداره . وتظهر نبيلة على حقيقتها : امرأة لا عواطف عندها . لما خسرت الصفقة طلبت مني أن أغادر شقتها على وجـه السرعة . واشبع وأنهل من شقتي . ولتنفعني بنتي . وأخرج من شقتها . حصنها ومركز سيادتها لأعـود إلـى شـقتي . ملاذي الأول والأخير . وأجدها خاوية . لا أثاث فيها اللهـم إلا ثلاجة كهربائية وبعض أدوات المطبخ . باع هشـام كـل

الأثاث حتى يمكن أن يبني سقفاً أسمنتياً إذ لا يمكـن البنـاء دون أن يتأثر الأثاث . وقد لا يصلح بعد أن يتم ترميم الشقة إذ سوف يملؤه الجبس والرمل وتحدث لـه خـدوش تجعـل منظره كئيباً . كان ينوي أن يحول بالتدريج أثاث بيته ليقيم معي ، وعندما فشل المشروع ولم تتمكن نبيلـة أن تمتلـك الشقة ، تغير كل شيء . مع أنني كنت مستعداً لو طلبا منـي إبرام عقد البيت الابتدائي لما ترددت في توقيعه لكنهمـا لـم يطلبا شيئاً . أصبحت شخصاً غير مرغوب فيـه . لا أريـد شيئاً غير أن تعيد لي حجرة نومي وحجـرة الطعـام التـي جمعتنا كثيراً في الماضي الزائل . وحجرة الجلوس استقبل فيها من يود أن يراني في أيامي الأخيرة . لكن هـل مـن مجيب ؟ .. نبيلة لم تطق أن أمكث في بيتها لحظة لاعتراض ابنتي على البيع .. فلم لا تعيد إلي أثاث بيتي الذي بيـع دون علمي ؟ .. أليست هي التي قررت الانتقال وهى التي وأدتـه ؟ .. لم أخذوني من بيتي وطلبوا مني أن أذهب إليهم ، لم لم يتركوني أبقي فيه ، وأتدرب على الحيـاة وحـدي وأعـيش الحياة وحيداً .

كانت زهيرة هي البداية . حينما قالت :

- يا أبي أنت لن تتمكن أن تحيا وحدك .. أريدك أن تأتي إلى فيلتي ، وتعيش معي . أسـتطيع أن أخـدمك وأرعـاك وأتكفل بك . واستحق منك دعوة أباهي بهـا النـاس يـوم القيامة .

قلت لها وقتها :

- أنا أدعو لك ولأخويك دون ما حاجة إلى خدمة . ومـا دمت تريدين أن أكون معك فهيا أتوكأ على يدك حتى نصـل إلى بيتك .

هي البنت الكبرى وهي أحق بأبيها ترعاه وترعى شئونه وتتكبد من أجله المشقة مثلما تكبدها من أجلها وهى صغيرة .

- وصلنا فيلتي يا أبي .

تتباهى البنت بأن لها فيلا . سحرت زوجها حتى كتب لها ما وراءه وما أمامه .. في الظاهر فقط . لكنه كـان يملـك شركة مقاولات كبيرة ، تدخل عملياتها في كل الأماكن وتأتيه الثمرات من حيث لا يحتسب . وطلقت الوظيفة . ورفضـت وقتها - أنا وأمها- على ذلك فقد كانت تعمل سكرتيرة فـي البنك المركزي .. وراتبها يزيد عن راتبي كثيـراً .. لكنهـا تركتها لتتفرغ لتربية أولادها الثلاثـة . غريبـة أن تـرزق بثلاث أولاد ، وأختها بهيرة بولدين . أما هشام فـأن لديـه بنتين وولد فقط .. هو الذي يحمل اسم جده واسم عائلة جده . وحينما كبر الأولاد عادت إلى العمل لكنه في هذه المرة عمل حر .افتتحت مطعماً كبيراً . من يصدق أن امرأة تدير مطعماً كبيراً ؟ .. لم يمانع زوجها لأنها لا تقدم الخدمة للزبـائن ولا تحاسبهم إنما هي تدير المحل . وتراقـب الأصـناف وهـي تخرج للزبائن. وتراقب الإيرادات وهـى تـدخل الخزينـة. أصبحت زهيرة سيدة أعمال بمعني الكلمة ، وصارت تنافس زوجها سيد المقاولات.. المهندس الذي أحبها رغم أن جمالها محل شك .

لم يكن لي نصيب في الفيلا إلا حجرة صغيرة .. كانـت فيما مضى تسمى مخزناً. لقد رأيت المخـزن كبيـراً فـي الماضي وأنا أزورها وأمها تلك الزيارات الخاطفة ، وها هي فرغت الحجرة لتكون حجرة ينزوي فيها الأب الدخيل . وفي الفيلا لم يكن هناك أحد يسليني أو يتكلم معي . كانت زهيرة مشغولة بإدارة مطعمها .. وأولادها مشغولين فـي كليـات الهندسة والفنون الجميلة والتجارة . حاولت كثيراً أن أتكلـم معهم لكنهم جميعاً كانوا يعاملونني كدخيل . إسرائيلي جـاء لزيارة مصر . وزوجها غارق في أعمال المقاولات قد يأتي بعد أن اخلد إلى النوم عسير المنال .وإذا تصادف وجوده فهو يستمع إلى قليل من الموسيقي الحالمة حتى تهدأ أعصابه من جو المؤامرات والدسائس الذي يحيطه وهو رجل الأعمـال البارز ، والأولاد قد قفلوا عليهم حجـراتهم لا يرغبـون إلا المذاكرة واسترجاع دروسهم بجد ونشاط . لا يوجـد مـن بينهم واحد يميل إلى الثرثرة أو يميل إلى الاستماع لشـخص يثرثر بلا توقف . ولا تأتمن زهيرة خادماً أن تبقيه في الفيلا ويأتي الطباخ والخادم في ساعة تواجدها ويرحلان قبـل أن تغادر ، فمع من يتسامر عجوز مثلي . تـرفض زهيـرة أن تجالسني لأن العمل يتعبها . ويرفض زوجها أن يحادثني لأن العمل أنهكه . والأولاد يديرون لي ظهورهم مسـتنكرين أن أتكلم معهم . عجوز غير مرغوب فيه ، فلم يكن لي أن أكلم إلا نفسي صباحاً ومساء . شكوت لبهيـرة حينمـا جـاءت

تزورني بعد ثلاث شهور من إقامتي لدى زهيـرة . قالـت غاضبة :

- هيا معي . ستعيش في بيتي .

أستأذن زهيرة بضعف . فلم ترفض ولـم تمـانع . ولـم تشاغب أختها الصغيرة كأني هم أزيح عن كاهلهـا . وقـد دخلت بيت زهيرة ولم يكن زوجها يدري عن تصرفها شيئاً . وتجهم وجهه حينما رأى في يدها حقيبتي . لم يكن منزعجـاً من أنها تحملها عني ، إنما كان منزعجاً من أن أنضم إليهم. وبدا منذ الوهلة الأولى مستنكراً أن آتي لأعيش معهـم فـي شقتهم الضيقة . وكثيراً ما سمعت مناقشـات تـدور حـول الأسباب التي دعت بهيرة إلى استضافتي . وكيف تتخذ هـذه الخطوة دون استشارته . وأنا أجلس على سريري الصـغير الذي قرر زوج بهيرة يوماً أنه أعده خصيصا مـن أجلـي ، والذي في ختام زيارتي له حطمه بيد الهون أمـام عينـي ، وهو يبحث عن مطرقة فلا يجدها . كأنما كـان يقطـع أي سبب يعيدني إلى بيته من جديد . وأنا واقف أشاهد في بلاهة ، وهو يقترف ما يقترفه ، ولا أدري السبب الحقيقـي مـن وراء هذا التخريب كأنما ضـاع مـن ذاكرتـي السـبب أو تناسيته .

ما هذه المأساة التي أعيشها ؟ .. وما سببها ؟ .. سـببها رحيل زوجي الحبيبة أم هؤلاء الأجلاف الأشقياء . وأنا أدنو من الثانية والسبعين . واستنكار الأولاد استضافتي عنـدهم . وعدم قدرتي على أن أعيش وحدي .. بهذا النظر الضعيف ،

وتلكما اليدين الهزيلتين .. وبهذه القدرة الضعيفة التي أملكها .. وأنا لا أعرف كيف أطبخ .. ولا أعرف كيف أشـتري . ولا أعرف كيف أكنس أو أمسح أو حتى أغسل طبقاً . كنت أعيش وجاذبية هي التي ترعاني ، وهى التي تقضـي كـل شيء في بيتي . حتى كوب الماء لم أكن أنهض لأحضره .. إنما كانت تسرع لإحضاره لي . لا تريـدني أن أعمـل شيئاً . تريدني رب بيت بمعنى الكلمة . حتـى فـي أواخـر أيامها والمرض يضغط عليها ويطحن فيها كانت تلبي حاجتي إلى كوب الماء . وأنا استكثر أن أنهض لأشرب معتمداً على نفسي ، كأنما ذلك عقاب يوقع علي الآن لأني لـم أعـرف معنى الاعتماد على النفس . بل كانت تمنع أولادها الثلاثة : بهيرة وزهيرة وهشام من أن يساعدوها في شئون البيـت أو أن يقضوا لها حاجة من الداخل أو مـن الخـارج . كانـت تنهض في الصباح تدب في البيت .. تكنس وتمسح وتهـذب وترتب . بينما أنا وأولادها في أعمالنا . ونعود لنجـدها قـد خرجت إلى السوق واشترت الفاكهة والخضراوات والخبز . وطفقت تطبخ وتعد المائدة . ونأكل أكلاً شهياً حتى نستكفي ، وننهض لننام وهى لا تزال كالنحلة الدءوب على العمل فـي البيت . تغسل المواعين .. ترتق ثوباً أو تفصـل فسـتاناً أو تكنس مكاناً امتلأ بالقاذورات أو تراكمت فيه الأتربة دون أن تكتشفه . وتسرع في تجهيز شاي الساعة الخامسة دون كلال . وأخرج إلى المقهى أتسـلي . ويخـرج الأولاد للفسـحة أو للزيارة . أو للمذاكرة مع زملائهم . وقد تغادر البيـت أو لا

تغادره . جاذبية كانت كل دنياي . بل هي مصدر حركتي . لم تعلمني شيئاً في الطبخ أو المسح أو الكنس أو النظافـة . لم تساعدني في الاعتماد على النفس . إنما كانت تفعل لي كل شيء . وكان المرتب الذي أتقاضاه من الوظيفة التي أنعم الله بها علي أعطيه إياها ولا أعرف عنه شيئاً . ولم تتذمر يوماً من ارتفاع الأسعار . وأخيراً هاجمها ذلك المرض الخبيـث في قدميها . ظهر في صورة أورام . ظنناها دوالي من كثرة الوقوف . ثم نهش صدرها ثم قضى عليها في ليلة لـيلاء . ولو كان هذا المرض قد ظهر في سن الخمسين لكان رحيماً بي . إذ من الممكن أن أتعلم أن أعتمد على نفسـي دون أن تخذلني قواي وأمضي هذه السنوات العشـرين ولا أحتـاج لمعونة أحد ، غير أنه ظهر في السبعين . ولم أر يوماً حلواً بعدك يا جاذبية . ظهر المرض وأنا جيفة تتحرك على قدمين بصرها كفيف ويداها ترتعشان وقدرتها مشكوك في تحملهـا لأي مصاعب . لطمة قوية وجهها إلـي موتهـا . تحملتهـا والقلق يعتريني .. حتى لاح لي قارب النجاة زهيرة .. التي لفظتني دون مقاومة . وجاء قارب النجاة الآخر بهيرة ، غير أنه تحطم بمعول زوجها . ثم جاء طوق النجاة من هشـام ، غير أن نبيلة زوجته أطلقت هواءه وفرغته من قدراته علـى حمل الجيفة . وصرت الآن في شقة واسـعة مجـردة مـن الأثاث ، أنتظر رحمة الرحمان .. ويده الواسعة . شقة تسمع فيها صفير الرياح ومرارة الوحدة وألم النكران والجحود .

الشريط الثاني

يحكي الأبناء أسباب طرد أبيهم من بيوتهم . ويأتي أخـي كمال ليقص طرفاً منها . زهيرة كانت تدعي أنني كنت أعبث في بيتها . أبحث عن طعامي وأترك أكثره وما لا يخصـني خارج الثلاجة ، ولا أعيـده . ولا تسـتطيع أن تعـاتبني .. تخجل مني . أترك التلفاز يذيع إرساله دون شفقة أو رحمـة بالاستهلاك الكهربائي . ودون حتى أن أراه أو أسمعه . كان يكفيني أن أشاهد وهو يسجل أعداداً في عداد الكهربـاء ولا أهمية لمن سيدفع قيمتها . ومعروف أن بصري كادت تصيبه غمامة ، حتى أني لا أميز الأشياء إلا بعـد لأي . أو أتبـين الشخص الذي يتكلم معي بصعوبة بالغة . . حقاً كنت أميـز الأصوات على وجه السرعة فكأن قوة البصر قد انضمت إلى قوة السمع فزادته ثم انحسـرت عـن العينـين . غيـر أن الأصوات التي لم أكن قد اعتدت عليهـا يصـعب علـي أن أميزها ، فكأني نصف كفيف نصف أصم . وشكاوى زهيرة كانت تدفنها في قلبها ولا تتبرم منها ، حتى ضـقت بالبقـاء عندها لأني أعاني الوحدة . لم تتـردد أن توافـق علـى أن أنسحب من حياتها لأنضم إلى بهيرة .

ويأتي أخي كمال أيضاً ليقص لي طرفاً من شكاوى بهيرة . كنت أكلفها كثيراً بتكاليف كثيرة ، حتى أنها لعنت وظيفتها التي تطلقها بعد الساعة الثانية بعد الظهر ، لتتواجد في البيت معي حتى اليوم التالي . أطاردها خلال هذه الفتـرة الأليمـة بالطلبات. أطلب منها شاياً وحينما تعود به أعود أرفضـه ،

واطلب منها قهوة . اطلب منها طعاماً وحينما تجهز المائـدة أقول لها إن نفسي مصدودة عن الطعام . وبعد قليل أقول لها أعدي المائدة وتكون قد وزعت ما أعدته في أماكنه . لا أنام الليل وأتجول في البيت فأقلق راحة الأولاد الـذين يطلبـون قليلاً من النوم حتى يتمكنوا من مواصلة الدرس في الصباح . وأقلق راحة الزوج ، ذلك الذي يعمل عملين : عملاً فـي الحكومة في الصباح ، وعملاً في دكان أبيه في المساء لبيع المواد الغذائية . وكأن الجميع يضج مـن صـوت المـذياع العالي فيزداد قلقهم وينمو ويربو حتى يتلف أعصابهم . هـل من المعقول ذلك وأنا سمعي حديد . لعل السمع أصيب هـو الآخر بعاهة أو ضعف مثلما أصيب البصر دون أن أدري .

ويأتي كمال ليحكي قصة نبيلة معي . نبيلة التي تذهب إلى عملها في الصباح وزوجها وإلى عمله وأولادها إلى مدارسهم ، تشكو شكوى مزدوجة . كل السيئات التي رددتها زهيرة ، وكل السيئات التي حكتها بهيرة . كررتها نبيلة . وذاكرتي لا تسعفني . ولا تؤكد لي أنني فعلت كل هذه الموبقات. كل تلك المبررات ساقوها إلى كمال حتى ينقلهـا إلـي وأحـاول أن أتخلص منها . هل من المعقول أن كهلاً في الثانية والسبعين من عمره يمكنه أن يتخلص من عيوبه ؟ .. المهم أن أولادي تنكروا لي في أيامي الأخيرة . وأخي كمال لم يتنكر لي هـو وزوجته رغم ما أقترفته في حقهما منذ زمن بعيد . كأن ذلك ولا تزال جاذبية على قيد الحياة . وكان بيدها الحل والربط ، فوقفت أمام سعادة أخي بكل قواه . جاء إلي يوما يقول :

- لقد أُحلت إلى المعاش يا أخي ..

قلت على الفور :

- كلنا سوف نحال إلى المعاش .. أنا أُحلت قبلك ومضى الآن خمس سنوات .

- اسمعني أولاً وبعد ذلك قرر .

- هات ما عندك .

- أنت تعرف أن الساكنين بدورنا الأرضي لا فائدة من خروجهم. كلهم على قيد الحياة ويدفعون إيجاراتهم الزهيدة بانتظام ، لذلك فكرت أن ابني فوقك دوراً .

سارعت قائلاً :

- ألا تعرف أن سقف البيت ليس مبنياً بالأسمنت . وأنه لا يصلح أن يكون أساساً لشقة جديدة .

- أعرف ذلك . ولكن سوف ابني السقف بالأسمنت ثم أقيم الشقة . إن عواميد البيت متينة .

- هل تعرف أن البيت يمكن أن يتهدم لو بنيت عليه شقة جديدة وأن لا ترخيص هناك ببناء الدور الثالث .

- سوف استخرج الترخيص فما رأيك ؟

- استخرج أولاً وبعد ذلك تعال ناقشني .

بينما يسعي كمال في مجلس مدينة الجيزة بهمة ونشاط تؤازره زوجته بقوة واجتهاد . كانت جاذبية تتداول الأمر في رأسها ومعي ومع أولادها الثلاثة . اصبح شاغلها الشاغل أن تعرقل مجهودات كمال وأن يمتنع عن بناء شقة فوقها . وأن تكون دولت زوجته على رأسها . كأن بينهما تنافراً طبيعياً لا

يد لواحدة فيه . لم يكونا يتزاوران أو يتبادلان الحديث ، لكن أن تسكن دولت فوقها فهذا أمر خطير . مع أن هـذه الشـقة سوف تصنع لها سقفاً جيداً يحميها من الأمطار في الشـتاء ، تلك التي تتسرب من بين السقف الخرع في بعض الأحيان . ويحميها من غائلة الصيف التي تنفذ عبر الجـدران الرقيقـة كأنما تلطم من يقف تحتها . وقررت جاذبية أن تحـول دون أن يبني كمال شقة فوق شقتها . قررت أن تضـع العراقيـل والعقبات وتهدم كل الجسور التي قد يحاول بناءها بيننا .

حينما أحضر كمال الترخيص من مجلس المدينة . وطلب منا إخلاء الشقة والعيش في فندق - أنا وجاذبيـة - علـى حسابه الخاص حتى ينتهي بناء السقف . رفضت جاذبيـة أن تتزحزح قيد أنملة من بيتها . بل رفضت بإبـاء وشـمم أن يدخل أحد العمال شقتها وأن يبني كمال فوقها دوراً جديـداً . وصرخ كمال بغيظ :

- إذاً لم كان التعب يا أخي والجري وراء مـن يسـاوي ومن لا يساوي في مجلس المدينة حتى استخرج الترخيص . ويحضر المهندس ويقيس قدرة الدار على الصمود . وأدفـع لهذا ولذاك . ألا تعرف أنك كلفتني ما يزيد على خمسـمائة جنيه من أجل استخراج هذا الترخيص .؟ .. يكفي أن تعرف أنه لم يكن هناك إعلام وراثة لأبي استخرجته . ولـم تكـن الحجة معك ورفضت وداد زوجة أخيك محمود أن تعطينـي إياها فاستخرجت حجة للمبني جديدة . ثم بدأنا نقبل الأيـادي في مجلس المدينة حتى صدر الترخيص .

ولم يكن لي يد في الموضوع برمته . الأمر كله في يد جاذبية وهي ترفض رفضاً باتاً . وقال كمال : صدق المثل .   عشموني بالحلق خرمت أذني ولا فائدة فلم آخذ منكم الحلق .

تصرف كمال بعد ذلك . استطاعت زوجته ، وهي تملـك بيتاً في المنيب أن تطلب من مستأجر أعزب لديها أن يغـادر شقته مقابل مبلغ من المال فلم يمـانع المسـتأجر ، وكـأن المستأجر قد اكترى الشقة مفروشة ولم تظهر لديـه أي نيـة لإحداث إشكالات. غير أن كمال كان قد تربى في دار أبيه ، ويهفو إلى العيش فيها ، ولا يـتمكن أن يكـون فـي دار لا يملكها أو يستأجرها ، وتملكها زوجته ، لـذلك اخـذ كمـال يتحين الفرص بأن يموت مسـتأجر مـن حجـرات الـدور الأرضي أو يغادرها مستأجر حتى اصبح هنـاك حجرتـان وصالة ودورة مياه ومطبخ وتمكن من الانتقال إليها ويسـتقر فيها هو وزوجته وولداه . وفعلاً دخل كمال الدور الأرضـي بعد خمس سنوات من الانتظار ، ودهن الحوائط ، وغير من دورة المياه المتهالكة ، وأدخل الكهرباء باسمه ، ودخل الدار رغماً عن أنف جاذبية . واصبح الدور الأرضـي يخصـه . يأويه هو وأسرته ويشبع حنينه إلى البقاء في بيـت أبيـه . والدور الأول لأولاد المرحوم محمود أخي الكبير . والـدور الثاني خاص بي . غير أن جاذبية استمرت تقاطع دولت كما أن زوجة محمود - وداد - كانت تتجاذب معهـا أطـراف التحيات دون زيارات . كانت وداد هـي الأخـرى لا تبلـع

ادولت حديثاً . هل يكون ذلك لأنها كانت أقل عجزاً منهما أو الأكثر شبابا ؟ ..

ابحث الأسباب التي حالت دون صـداقة جاذبيـة ووداد بدولت ، فلا أعرف لها رأساً من قدمين . ما سر هذا النفور بين زوجة الأخ والزوجتين الأخريين ؟ .. لعل السبب يكمن في فارق العمر بينهن فقد كان الفرق يقاس بعشر سنوات أو أكثر . بل يمكن أن يكون خمس عشرة سنة . السـر إذاً أن دولت لم تدخل بعد أعتاب العجز أما الأخيرتان فهما تـدنوان من الشيخوخة . غير أن العلاقة بينهما كانت فاترة ولم تصل إلى الكيد والدسائس فيما عدا اعتراض جاذبية على بناء شقة لكمال فوق طابقها . بل إن ولدي كمال لم يكن لهما علاقات بأولادي أو أولاد عمهما محمود . قد يكون السبب في ذلـك أيضاً فارق السن . إذ بينما كان ولدا كمال لا يـزالان فـي المدارس الثانوية . كان الأولاد الآخرون قد تخرجوا وكونوا أسراً وعائلات. وقد كبر ولدا كمال وألتحق أحدهما بالكليـة الفنية العسكرية ، وقذفت به المقادير إلى حدود مصر البعيدة . بينما الابن الآخر لا يزال يدرس فـي الكليـة الحربيـة . وعلاقتي بهما لا تتعدى اللقاء بالصدفة يقولان فيه : أهلاً يـا عمي .. وأقول لهما : أهلاً يا ولدي . وعندما زحف الـوهن إلى النظر لا أذكر أن التقيت بهما لعلهمـا كانـا يقـابلانني ويتحاشيان السلام ، لأني لا أبصرهما أولا أتعرف عليهما .

والآن وقد غربت شمس جاذبية ، وأصبحت وحيداً لا أجد معيناً . أبصر بضعف ولا أتمكن من تحضير لقمة لي آكلهـا

فتقوم دولت بتجهيز الطعام لي كل يوم تقريباً وترسله إلـي ، ويصعد كمال حاملاً إياه وقد يأكل معي أملاً في فتح شـهيتي المصدودة ، أو ليتركه لي حتى آكل على مهل . بل إن كمال استضافني يوماً أو يومين حتى تمكنت مـن شـراء سـرير ودولاب صغيرين بدلاً من الأثاث الفاخر الذي باعـه هشـام ولم يعوضني عنه . حقاً حصل على إذن مني ببيعه لكني لم أكن أظن أن زوجته ستغدر بي هذا الغدر وتطردنـي . لقـد رفضت جاذبية من قبل أن تغادر الشقة حتى يضـع كمـال أساس السقف ، ولم تقبل أن يخزن الأثاث في أي مكان حتى ينتهي بناء السقف . ولكني قبلت أن يباع الأثاث ليبني السقف . وإذا به يباع ولا يبنى شيء . أحسست بالضياع حتى خرج كمال واشترى لي الدولاب والسرير . أكرمني كمـال فـي أيامي الأخيرة أنا الذي لم أكرمه حينما عاد من غربته بالمنيا يريد أن يحيا تحت سقف بيت أبيه ، فتصدت له زوجتي ولم أعارض تصديها ورفضت إقامته هو وزوجته وولديه .

أذكر أنني حينما آويت في ذلك اليوم الذي جهز فيه كمال حجرة نومي . أنني أغمضت عيني على دموعها ، ورحـت في سبات عميق . لم أنهض منه إلا وكمال يلكزني لأسـتيقظ حتى أشرب شاي الصباح معه ، وأتناول زاداً يمد قليلاً فـي أيامي الأخيرة .

ثم جاءت ابنة أخي محمود لتضع في يدي هـذه الهديـة القيمة ، ذلك المذياع والمسجل في نفس الوقت . أستطيع بـه أن أسمع نشرة الأخبار وأن أسمع ما يتيسر لي من القـرآن

الكريم بشريط أضعه في المسجل . بل من الممكن أن أسجل به ما أحب مما يذاع مـن قـرآن أو أحاديـث أو أغـاني . وفضلت أن أسجل عليه ذكرياتي . غريبة أن تكـون البنـت أكثر كرماً من أبيها ، ولم ترضع منه الأنانية والبخل .

محمود مات منذ عشرين سنة لكن الآلام التي تركها فـي نفوسنا لا تزال تصرخ في قلوبنا ، لقد ترك أثراً كبيراً فـي حياتنا . كان هو المسيطر على عـائلتي سـيطرة كاملـة . وأقصد بالعائلة أمي وأخوتي وأختي . بعد أن قضى أبي في صدر شبابه أو وهو على أعتاب الشيخوخة ، هو الذي أصدر فرماناً ألا أستكمل تعليمي الثانوي وأن أنخرط فـي التعلـيم التجاري لأني غبي لن أتمكن من مواصلة تعليمي العـالي . وحكم علي أن أكون موظفاً عادياً طوال حياتي ولا أمل لـي في الترقي لأن شهادتي المتوسطة لن تمكنني مـن اختـراق الصفوف . غير أنه لم يتمكن أن يرتكب نفس الفعلة مع كمال لأنه كان متفوقاً في دراسته لدرجة أذهلت الجميع . وسمح له أن يواصل تعليمه الجامعي وهو يتضرر من النقـود القليلـة التي يتكلفها . ويدفعها له من ميراثه الشرعي فقد كان كمـال لا يزال يشارك أمي في معاش الوالد . ولا أعـرف وجـه السخط الذي كان يثيره كلما طالبه بثمن كتاب فهو لـم يكـن يتصدق عليه . وكانت أمي قد أسلمت قيادها لـه . وكانـت تتدخل في تصرفاته من حين لآخر بالسخريات اللاذعة فكان لا يواصل عملاً يريد ارتكابه خشية أن تعاتبه أمـي عتابـاً صارماً . وهو الذي تدخل وزوجني من جاذبية وقرر أن نقيم

في السطح الذي بنيت فيه سـقفاً هشـاً . ومنـع عنـي أي مساعدات من والدتي بحجة أن وظيفـة سـكرتير مدرسـة ابتدائية التي وصلت إليها يكفي مرتبها إقامة حيـاة مسـتقرة ليس فيها أنواء .وقام بتأجير الدور الأرضي شققاً واسـتولي على إيراداته . وأختص هو بالدور الأول يقيم فيه هو وأمي وزوجته وأولاده وبناته . وحرم أختي فتحيـة مـن إيـراد ميراثها دهراً ثم تصدق عليها بقروش قليلة يوم احتدم النزاع بينها وبين زوجها وحرمها من أي مصروف . ولم تكن وظيفته الحكومية يكفيه مرتبها لأنه مثلي شـهادته متوسـطة لذلك قام بالاستيلاء على كل شيء : معاش السـيدة الوالـدة وإيراد الدور الأرضي وريع العقارات التي كانـت تخـص المرحوم والدي وبعد ذلك أثمان هذه العقارات بعد أن باعهـا مما جعله وأسرته يعيشون حياة راغدة . ولم نستطع أن نقف في طريقه وهو يبيع تلك العقارات لأن أمي كانـت تدعمـه وتقف بجانبه فهو ابنها البكر . وكان يعطينا الفتات ويستولي على نصيب الأسد . ويا ليته أبقـى علـى هـذه الأمـوال واستثمرها إنما تدخلت زوجته في طريقة صرفها أتلفت كـل مخطاطاته ، كان مقتراً وهى مسرفة ولا يتمكن مـن كـبح جماحها ، فكانت تبعثر كل ما يتجمع في يده وكل ما ينهبه . وكان وقتها يدعي أن العقار بيع بثمن رخيص ولا بـد مـن بيعه لأن الفائدة من ورائه ضئيلة ، فهو لا يدر إلا ملالـيم . وأقام في الدور الأرضي جمعية للحج ضخمت موارده المالية غير أن هذه الجمعية انهارت بعد وفاته المفاجئـة . وجـاء

الدائنون يطلبون مستحقاتهم ولم يجدوا غير الهواء يصرخون فيه فتضيع فيه صرخاتهم . كان محمود يجود على أهل داره لكن جوده لا يتعدى داره . ويرفض أن يتميز أحد . لم يكـن في موته رحمة بنا لأنه حينما أنتقل إلى الرفيق الأعلى كـان قد تصرف في كل ما آل إلينا من ميراث . ولم تبق إلا الدار التي نقيم فيها . ولم يجرؤ أن يتصرف فيها لأنها كانت مأواه الوحيد .

الشريط الثالث

الدنيا لا تزال بخير . اتصلت أختي فتحية بـي ، طلبـت مني أن أنتقل إلى الإقامة معهـا . شـقتها واسـعة . أربـع حجرات وصالة . تعيش فيها بمفردهـا الآن ، ولا بـأس أن أنضم إليها فيؤنس أحدنا الآخر . ولن يحدث في يـوم مـن الأيام أن ترفضني مثلما رفضني أبنائي لأني أختهـا ومـن لحمها ودمها . كانت تعيش معها ابنتها التـي سـافرت مـع زوجها إلى البلاد العربية ، وهي على وشك أن تغادر الشقة لتعيش مع ابنتها الكبيرة المقيمة في الإسـكندرية ، أمـا لـو قررتُ أن أعيش معها فسوف تعتذر لها لأني سـوف أمـلأ فراغ حياتها . لكني اعتذرت لها دون أن أقول لهـا أنـي لا أريد أن أكرر المأساة مرة أخرى . يكفي ما أصـابني فـي بداية أيامي الأخيرة على أيدي أولادي الثلاثـة . ووضـعت سماعة الهاتف ذلك الذي لم يبعه هشام هو الآخر مع أثـاث الشقة . والدموع تنهمر من عيني الضعيفتين . وكنت أسـأل نفسي كيف لهذين العينين أن تدمعا وهما تكادان تكفان عـن

البصر .. ولولا أنني ذهبت إلى الطبيب قبل وفاة جاذبيـة . وقد أخذت تسندني المرأة العـاجزة وهـي ترشـدني إلـى الطريق . ورتق الطبيب القرنية بأشعة الليزر فكـاد يعـود البصر ولكنه عاد ضعيفاً . لقد باع الأثـاث وضـم قيمـة المبيعات إلى رصيده ، ولم يقل لي هذا حقك يا أبـي خـذه وتصرف فيه كيف تشاء أو اشتر بعض الأثاث ينفعك . لا .. إنما خاصمني هو وأختاه ولم أعد أراهم .

أذكر حينما هاجم المرض الخبيث جاذبيـة سـألتها وأنـا مضعضع الحواس : ماذا سأفعل دونك يا جاذبية ؟ .. قالـت بكل إيمان : لك رب . قلت : ونعم بالله .

غريبة أن أنجب مثل هؤلاء الأبناء الجفاة . وغيـري لـم ينجب مثلهم . أولاد فتحية لا يزالون يودونها ويأتون إليهـا ولولا أن ابنتها الصغرى اضطرت أن تعيش بجانب زوجهـا في الدولة العربية لترعاه وترعى ابن ابنتها المتزوجة العاملة لكانت قد استمرت تعيش مع فتحية ولما قُفل باب بيتها ولمـا انتقلت إلى الإسكندرية لتعيش مع ابنتها الكبرى وزوج الابنة وحفيدتها الصغرى .

وها هي زوجة أخي ساكنة الدور الأول - وداد- تعـيش مع ابنها الأصغر وزوجته وولديه . ولا تختلف ألفت زوجـة ابن أخي عن دولت فكلتاهما لا تزالان تغترفان من طبخهمـا وتصعدان لتناولاني صحنا مليئـاً بالخضـراوات واللحـوم ومزيناً بالفاكهة والسلاطة وبجانبه رغيف أو رغيفـين مـن

الخبز الأسمر الساخن . قد يعطيك الدهر أبناء قساة لكن لـن يعدمك جيراناً فيهم المودة والألفة .

حقاً تفرق أبناء وداد عنها لكن لم يفقد الود بينهم وبينها . أحدهما يعمل في الكويت ومتزوج ولديه بنتـان . ويقضـي أجازته السنوية في دارها رغم أن لديه شقة مؤثثـة بـأفخر أنواع الأثاث لم يدخلها بعد إلا من بـاب متابعـة أحوالهـا وتنظيفها ودفع الرسوم الخاصة بها . والآخـر يسـكن فـي مصر الجديدة وهي تبعد عشرات الكيلو متـرات ومشـغول بتربية أولاده وبناته ، لكن لا يزال يود أمه من حين لآخر . والثالثة لا تغيب يوما إلا وتزورها في اليـوم التـالي رغـم مشاغلها في العمل والبيت والأولاد . والرابعة لا تفتأ تطلبها كل أسبوع من السعودية لتطمئن على أحوالها . والخامسـة أقامت في الكويت بجانب ابنتها الكويتية الأصل المولودة من زوج كويتي لكن لا تبخل على أمها بالسؤال . أمـا هـؤلاء الأبناء - أبنائي - فقد قطعوا حبل الاتصال فيما بيني وبينهم .لا أذكر يوماً أنهم فكروا أن يقدموا لي هدية اللهم إلا وقتمـا كان هشام يعمل في بلد عربي . هل أخطأت في تربيتهم ؟ .. لكني لم أربهم إنما ربتهم جاذبية . أتكون قد ارتكبت غلطات كثيرة في تنشئتهم فأفرزت هذه النوعيات الدنيئة من البشر . لا يجوز أن أبكي حتى لا يكف البصر نهائيـاً . إن البكـاء يضر بالعينين رغم ما يقال أنه يغسل العينين . ولا يجوز أن أكتم الدموع في صدري لأنها تجثم على أنفاسي وفـي هـذا ضرر بليغ بي . يجب أن أنسى ما حاق بي . وكيف أنسى ؟

.. وأنا أصبحت سجين أربع جدران ، أمسك المسجل أروي فيه حكاياتي وأزهق وأستلقي قليلاً . وأفكر أن أصنع كـوب شاي فأتكاسل . وأشرب كوب ماء من الثلاجة التي لم تبـاع فأتناسى . ويدخل كمال ساعة المغرب فأهرع إليه وأقـول : ابن حلال .. اصنع لنا قدحين من الشاي .

يعيبون علي أني كنت أعتمد على جاذبية في كل شـيء ، لكن جاذبية لم تحاول يوماً أن تدعني أعمل . كانـت تهـرع لتجهيز المائدة ، وتجري لصنع أكواب الشاي ، ولا تـرفض - وهي تعاني - أن تنهض لإحضار كوب ماء لي . مـاذا يفعل رجل - في أيامه الأخيرة - لم يتعلم أن يفعل شـيئاً ؟ ..هكذا ألقيت السؤال على عز العرب صـاحب محـل بيـع التحف المصنوعة من الجبس والصور الرائعة المقلدة وكتابة اللافتات الكبيرة الذي يقع محله بجوار بيتي . غير أنـه لـم يجبني أي إجابة شافية . عز العرب ذلك بدأ مـن الصـفر ، وهو أكثر بدانة منـي الآن . ويـزداد بدانـة مـع مـرور الأيام . كان يلتقط الأطفال من الملاجـئ ويقـوم بتـدريبهم وتشغيلهم في هذه الصنعة الجيدة صناعة التماثيل الجـبس . ومن يكبر منهم يعلمه الخط والرسم وذلك مقابل أجور زهيدة . ولم أواجهه يوماً بأنه يستغل هـؤلاء الصـبية أو يسـرق عرقهم ، لم يكن من طباعي أن أواجه الناس بعيوب فـيهم . وكثيراً ما كان عز العرب يتباهى أنه خلق فنانين من اللقطاء . ولو أن أكثرهم كان يتعلم ويهرب من محلـه ليعمـل فـي المحلات الأخرى المنافسة . كانوا يجـرون وراء الأجـور

المرتفعة لكن عز العرب لم يكن يهتم . كـان مـورده مـن العمال لا ينضب . ولم تبر سوق عز العرب أبداً . وتـأتي الانتخابات لتحدث رواجاً في تجارته . يأتي الرواج من صنع اللافتات وتعليقها لمن يدخل من المرشحين انتخابات مجلـس الأمة ثم مجلس الشعب و مجلس الشـورى ثـم انتخابـات المجالس المحلية ولا يتوقف الأمر عند ذلك إنما يمتـد إلـى انتخابات نقابات المهندسين والزراعيين والأطباء والمحـامين وغيرهم .. زبائن لا تعد ولا تحصى . اكتنز عز العرب مالاً كثيراً ، كانت زوجته أول اللواتي يسحبنه ومن بعده بناتـه ، غير أنه لم يتعرض للفقر يوماً . وصارت بيننا صداقة أشكو له همي ويشكو لي همه ، لذلك لم يكن المقعد المجـاور لـه يخلو مني خاصة بعد الساعة السادسة مساء أو بعد الظهيـرة في أيام الشتاء . هو يشرب البيرة بنهم ، وأنا أشرب الشـاي ببطء . وجهه الأبيض يزداد احمراراً من أثر الخمر ونتيجـة لارتفاع ضغط الدم . وأنا وجهي يزداد اصفراراً مـن أثـر الوهن ومن حبوب مقاومة ضغط الدم . ونتجـاذب أطـراف الحديث في الأسعار والسياسة والمجتمع وأسـرار بيوتنـا . كانت جاذبية تعترض - فيما مضى - على هـذه الصـداقة على اعتبار أنه لا يليق بسكرتير مدرسة أن يجالس صـاحب محل تحف ! .. وكنت أقول لها إنه رجل متواضـع وذلـك فضل أن يجالسني . أنا صاحب المائة جنيه الشـهرية وهـو صاحب الآلاف اليومية .

كانت زوجته مدبرة حقاً فقد كانت تستولي علـى تلـك الآلاف وتشغلها في شراء سيارات الأجرة وإدارتها . وكـان لديها أسطول من سيارات الأجرة لم يتمكن عز العرب نفسه من حصره . ولم يفكر أن يخرج عن سـيطرتها لأن بدانتـه وما أصابه من ضغط دم مرتفع الدرجة وما تبعه من سـكر قوض كل محاولاته لاقتناء عروس صغيرة . وبداهـة لـم أخرج عن سيطرة جاذبية أربعين سنة لأني لا أملك شـروة نقير . قضيت تلك السنوات فـي كنفهـا دون اعتـراض أو مضض ولم أتطلع لأي تغيير . ولم تكن جاذبية وحدها التي تنظر باحتقار إلى عز العرب رغم الآلاف التي في جيبـه . كانت وداد زوجة أخي هي الأخرى تنظر إليه بازدراء ربما لأنه جاهل لا يعرف غير القراءة والكتابة أو لأنه بـدأ مـن طبقة دنيا وها هو يدخل الطبقة العليا بخطوات ثابتـة ، ولا أهمية عندها لما يملكه من مال . وحاول ابنها الأصـغر أن يطلب ود بنت من بناته ، فما كانت إلا أن نهته عـن ذلـك وارتدع الولد ، لكنه زاد الطين بلة ، فأسرع وتـزوج مـن زميلة له لا تقارن ثروة عائلتها بما يملكه عز العـرب ومـا سيتركه لبناته .

أمر عليه وأجالسه ويطلب لي شاياً من المقهى القريب أو يصنعه لي أحد صبيانه . وبينما أزدرد الشاي رشفات ضعيفة ، يكون قد ملأ كأساً كبيراً من البيرة وارتشـف مـن زبـده بنهم . قد أنصحه بالإقلاع عن ذلك المشروب غير الصـحي لأنه ضار بصحته ، غير أنه يهز رأسه باستهزاء ، ويقـول

لي : ماذا فعلت لك حكمتك ؟ .. يعيرنـي بضـعفي ، لكـن الشيخوخة لا قدرة لأحد على منع أشباحها من أن تداهمـه . لكن ما يرتكبه من موبقات يمكن بإرادة قوية صلبة لا تلـين أن يقلع عنها . لكن أين هي الإرادة الصلبة لدى عز العـرب ؟ .. لا توجد . لقد سقط مرة مغشياً عليه واستسلم لمـرض طويل زهاء شهرين وحينما مرت الأزمة عاد من جديد إلـى تقاليده العتيقة . كان بجانبه زوجته وبناته في تلك المحنـة ، لكن حينما أسقط هكذا من سيكون بجـواري ؟ .. لا أحـد . سوف يتركوني أعاني وأتضور جوعاً وأنهـل مـن منهـل العذاب حتى ألفظ أنفاسي .

أسأل عز العرب كثيراً ، ولكنه لا يزهق مـن أسـئلتي . ماذا لو كنت أنا الذي مت هل كان جفاؤهم لأمهم سيكون بهذه الصورة ؟ .. وعز العرب لا يجيب . يمصمص شفتيه فـلا تفهم إن كان ما يريد أن يقوله إيجاباً أم سلباً . لا يوجد حولي أمثلة عن أزواج ماتت زوجاتهم . كل من حـولي يمثلـون زوجات مات أزواجهن . ها هي وداد .. وأختـي فتحيـة .. وها هي بنت خالتي وزوج خالي .. الرجال يذهبون قبـل النساء . فما الذي منع هذه القاعدة أن تحدث وأمضي أنا قبل جاذبية ؟ ..

بدأ الشك يخامرني في هذه السنوات الكبيسة فيمـا كـان يشاع في العائلة من أن جاذبية كانت تكبرني بسـنوات وإلا لكنت قد مت قبلها ، فعادة ما يموت الكبير قبـل الصـغير .

استغفر الله . إذ أن هناك صغار السن يموتـون قبـل كبـار السن . وليس هناك قاعدة في هذا الصدد .

أشياء كثيرة اعترضت عليها وأنا في سبيلي للزواج مـن جاذبية أهمها فارق السن . حتى أقنعـوني أنهـا تصـغرني بسنتين . وفارق الطول ، كانت طويلة رفيعة بينمـا كنـت قصيراً بديناً . فأقنعوني أنها سوف تنكمش بمـرور الوقـت بينما أنا سوف أتمدد . مثلما يقنعك بـائع الأحذيـة إذا كـان الحذاء واسعاً أنه سوف ينكمش بسبب العرق وإذا كان ضيقاً سوف يتسع بسبب الحركة . وفارق الثقافـة فكنـت أحمـل الشهادة الثانوية التجارية (دبلوم تجارة) بينما كانت تجيـد القراءة والكتابة ، ولم تتجاوز السنة الثالثـة الابتدائيـة فـي دراستها . وفارق المستوى . كان والـدي نـاظراً لإحـدى المدارس الثانوية أزهري الشهادة . بينما كان والدها رئيسـاً لمجمع من لحادي مقابر الإمام الشـافعي . توثقـت بينهمـا الصلة حينما بدأ يرعى مدفن الأسرة وتعرفت أمـي بأمهـا وصارت تودها وتغدق عليها . ومات الـرجلان ولا تـزال العلاقات وثيقة والزيارات مستمرة ربما لأن أخـوة جاذبيـة استمروا في رعاية المدفن والود بينهم وبين أخـي محمـود المسيطر الوحيد على العائلة ظل معقـوداً وتمـت الزيجـة بإشارة من محمود حتى يخلّص لأولاده الحجرة التـي كنـت أشغلها في الدور الأول . وأصعد وجاذبية إلى السطح لنبـدأ في تأثيث شقة من الفراغ . وساعدتني أمي من وراء ظهـر

محمود في شراء بعض الأثاث ودفع المهر كما ساعدنا أخوة جاذبية في شراء باقي الأثاث لهذه الشقة وبناء السقف الهش .

لعل أمي كانت أكثر تعلقاً بي من محمود لأني أشبه والدي شبهاً كبيراً ، ولو أني لم أرث منه حـلاوة الوجـه وعينيـه الخضراوين لكني ورثت ذلك الجرم السمين والجسد المدكوك باللحم والشحم . كانت المرأة العجوز تساعدني في السـر ، ولو أني لم أكن متلهفاً على رؤياها فقـد شـغلتني جاذبيـة بأنوثتها عنها ، ولو أني كنت أمر ألقي السلام ، ولا أجالسها ولا أسامرها . لعل بذرة الجفاء كانت في صـدري وورثهـا عني أبنائي . كم كنت مقصراً في حقك يا أمـي لكـن هـذه جبلتي ولست مسئولاً عنها . هكذا تمت صياغتي وأصـبحت أمشي على الأرض في حدود هذه الصياغة ولعـل أبنـائي اكتسبوا هذه الصياغة مني ومارسوها معي .

كما كان أبو جاذبية لحاداً يدفن الموتى فقد دفنتني جاذبيـة في أحضانها حياً . وجعلتني أعيش مثلما كنت أعـيش فـي بيت أبي .. لا أعمل .. ولا أتكلم .. ولا أناقش ، ولا حتـى أحاول أن أقرأ الجرائد . غير أن عـادة تـدخين السـجائر تعلمتها لكنها قاومتها بمنع المصروف الذي يساعدني علـى الاستمرار فيها . لذلك كنت مشهوراً بقبـول السـجائر مـن الآخرين هبة أو اقتداراً . ولم يكن غير عز العرب هو الذي يهبني السجائر بلا حساب . وكان أخي محمـود نهمـاً فـي التدخين ، ويمتنع عن أن يهبني سيجارة واحدة ، ولـو مـن حين لآخر ، لذلك كنت أقتنص منه السجائر عنـوة وأسـرع

باختطاف علبة سجائره قسراً فلا يحاول الاعتراض . إن من يأخذ شيئاً عنوة من محمود لا يحاول أن يسترده منه .. هكذا كان .. يخضع للأمر الواقع .

لكن جاذبية تركت لي هوايـة الاسـتماع إلـى المـذياع أمارسها متى شئت ، حتى لا أفكر أن أقتني جريدة الصـباح مثل باقي الموظفين . وعرفت من المذياع أن حرب فلسطين قامت . وأن الثورة اندلعت في بر مصر . وأن الفرنسـيين والإنجليز والإسرائيليين تكاثروا على مصر . ولما فشلوا في السيطرة عليها عادوا من جديد تتقـدمهما إسـرائيل وهمـا والأمريكان يؤازرونها في حرب يونية . هم يمدونها بالسلاح وهى تقهر المصريين بقوة . وتراجعوا في حرب أكتوبر .

ورغم هذه المعلومات فلم أكن أشتغل بالسياسة . ولم أكن أهتم بها لأن جاذبية لم يكن لها في السياسة رأي . بينما كان محمود أخي غارقاً حتى أم رأسه فيها . وكان يقوم بتوريـد الزبائن إلى عز العرب مقابل سمسرة معينة لصنع اللافتات الانتخابية . والغريب أن محموداً لـم يكـن يعضـد غيـر الخاسرين . حتى عندما لم يكن في الساحة غير المرشـحين من أعضاء الاتحاد القومي أو الاتحاد الاشتراكي العربي ، لم يكن يساند إلا المغضوب عليهم سياسياً أو المبعدين ولو أنهم لا يزالون يسيرون في زفة الاتحاد ويسـمح لهـم بمباشـرة السياسة ذراً للرماد في العيون .

كانت علاقتنا بالناس محدودة ، فلم يكن لدى جاذبية وقت لزيارة الآخرين . ولم يكن هناك غير أختيهـا وأخويهـا .

ونقص واحد منهم بوفاة أخيها الصغير الذي تعـذب كثيـراً بسبب زواجه . كانت زوجته قد لافت بآخر وطلبـت منـه الطلاق وتركت له ابنهما ثم أخذته منه نكاية فيه وتعذيباً له . مات فجأة في شرخ الشباب وظل الولد مع أمه يعاملـه زوج أمه معاملة سيئة واحتضنته أمي إنقاذا له من ذلـك العـذاب وفرطت فيه أمه بسهولة خضوعاً لأوامر زوجها الذي لم يكن يقبله . أعطته أمي حجرة تحت سقف سـلم البيـت ، تلـك الحجرة التي آوت إليها أختي سعاد فيما بعد ومعها أم لطيفة . وعاش فيها زمناً قصيراً ومات في حادث سيارة وهـو فـي طريقه إلى عمله الجديد الذي لم يكن قد مضـى عليـه فيـه شهران . ورضعت أمه العذاب وهى في أوج شبابها ولعلهـا لم تتمتع كثيراً بزواجها الجديد . لعلها تمنت أن تبقي بجانب رجلها القديم الذي أحبته يوماً ليحيا في كنفها ابنهـا وتمـوت هي قبله من أن تبقى مع عائلها الجديـد وتخسـر الولـد ذا المذاق السكري ابن ذلك الرجـل ذي المـذاق العسـلي . لا أعرف لم ترفض بعض النساء التهام العسل وتجنح إلى أكل الطرشي !! .. وغادرنا بعد ذلك الأخ الثاني لجاذبية مهاجراً إلى الولايات المتحدة بعد أن عشق أسترالية وكـان مضـرباً عن الزواج فأقلع عن إضرابه وتزوجها . ودفعتـه إلـى أن يهاجر إلى أمريكا ليغير مـن أوضـاعهما رغـم مركـزه المرموق في المصرف المركزي . لم يهنأ بالجنيهات التـي تتدفق في جيبه وأراد أن يقتني كنزاً من الدولارات يغتـرف منه كيف ما يشاء لعل السعادة ترفرف على بيتـه بأجنحتهـا

الألف .وكانت جاذبية تود أختها الصغرى كثيراً حتى إذا مـا تزوج هشام ابنتها قل الود درجات. وحينمـا مـا تزوجـت ابنتيها ضعف الود وشـاخ . أصـبحت مشـغولة بابنتيهـا وأحفادها . لكن لم تقطع جاذبية زياراتها لأختها الوسطى إلى أن كبر أولاد جاذبية ، فأخذت ترعاهم كثيراً وتبخـل علـى الآخرين بالزيارة . كما أن أختها - هي الأخـرى - بـرز أولادها في التعليم فأصبح كل وقتها من أجل راحتهم وكثيراً ما تكون رعاية الأولاد سبباً في فقدان الصلات مع النـاس . وكنت أنا على الهامش من هذه الزيـارات الأسـبوعية أو الموسمية دائماً. لا أخرج معها إلا نادراً . لم يكن يستهويني إلا أن أجلس بجانب عز العرب أو في مقهى قريب من البيت . أشرب شاياً وأكتفي بذلك مع سماع المذياع . لا أفكـر أن ألعب النرد أو الورق أو الدومينو أو الشطرنج ولم يحمسني لعب الآخرين لهذه اللعبات . أنا لا أشغل بالى بهذه الأشياء . يبدو أنني جبلت على ألا أحرك عقلي ، فكنت أستسلم للكسل حتى في العلاقات الإنسانية . أنني أكتشف الآن أنني لم أكن أشغل بالى بشيء . كيف عشت هذه الحياة الطويلة ومقدارها أثنتا وسبعون سنة دون أن يكون لي هواية معينة ؟ .. كيف لم أتعلق بفكرة أو قضية أو عادة حتى تدخين السجائر لم يكن يأسرني وإذا مضى يوم أو أكثر دون أن يمـن علـي أحـد بسيجارة فلا أفكر في دفع مليم لشراء واحدة . هل أنا بخيل ؟ .. يبدو أنني لا أعرف . كانت جاذبية هي البخيلة وأنا مثلها بالتبعية وتعلمت منها أن أكـون لحـزاً شـحيحاً . والـدليل

الواضح على ذلك أنني لا أمد يدي إلى مرتبي المتراكم فـي المصرف إلا إذا كان هناك شيء ضروري لابد منه . وحينما عشت لدى بنتي أو ابني لم أكن أفكر يومـاً أن أمـد يـدي بمصروف أساهم به في النفقات الجارية للبيت الذي أعـيش فيه مع أهله ولو أنهم كانوا سيرفضون ذلك . بل لم يحـاولوا - هم الآخرون - أن يخصصوا لي مصروفاً فهم يعرفـون أنني أتقاضى معاشاً .

استطاعت جاذبية رغم ضآلة المرتب في ذلك البحـر ذي الأسعار المتلاطمة أن ينفذ أبنائي مـن التعلـيم العـالي وأن يرتدوا ثياباً مقبولة وأن تكون لهم شخصيتهم في المجتمـع . لكن يبدو أن جاذبية فشلت في أن يكـون أولادهـا متـدفقي الحنان ورءومين ورءوفين . جاذبية لم تتوقف لحظـة عـن الصلاة والصوم والعبادة وذكر الله ، كذلك أولادها لم يحدث أن توقفوا حينما كانوا لا يزالون في بيتي . وسـرتُ نفـس المسيرة معهم ، لكن ماذا حدث لهم ؟ .. هل فقـدوا قـيمهم أثناء تكوين بيوتهم المستقلة ؟ .. كيف بدت منهم هذه المعاملة السيئة نحوي ؟ .. ألم تردعهم صلواتهم أو تربيتهم ؟ ..

الشريط الرابع

كثيراً ما أسأل نفسي عن أسباب هذا الضعف الذي عانيته طول حياتي .. حتى سمعت عنى من يقول أنني رجل طيب . ولم يكن هذا الضعف راجعاً إلى سيطرة زوجي علي إنمـا كنت مولوداً به منذ الطفولة . وقد يكون السبب الأكبـر الأخ المسيطر مع أن كل أبناء المربي الفاضـل عابـدين كـانوا ضعافاً حتى ذلك الأخ المسيطر على مقدراتنا . خاصة مـع أزواجهن . كأن محمود يبدو مستبداً في الظـاهر ، وحينمـا يخلو إلى زوجته وداد في حجرتهما ، تبثه قراراتها في هدوء ، ويخرج من الحجرة منفذاً لها . وكمال كان واضـحاً أنـه يستقي تصرفاته من هدي زوجته دولت ، ولو أن ذلك كـان يحدث بعيداً عن الأنظار . أما أنا فكان واضـحاً للعيـان أن جاذبية تصنع مستقبلي الباهت .

في الليلة الأولى من الزواج اتفقت معي على أن أسـلمها مرتبي ، وحينما اعترضت قائلاً :

- أريد أن أدعم سقف الحجرتين .

قالت بهدوء :

- لا تحمل هماً .. سوف أدعمهما .. وسأبني لك حجرتين أخريين في هذا المكان الفسيح من السطح . لا يمكن أن يكون لدى أخيك أربع أو خمس حجرات ولدينا حجرتان .

- وحينما يعترض أخي محمود .

- العواميد مرفوعة في السطح . وإذا وضع عليها سقف فلن يجرؤ أحد على المعارضة .

تمكنت أن تبني حجرتين ، لكنها لم تتمكن أن تبعث المتانة في سقف الشقة . وقد أعترض أخي محمـود بقـوة علـى تصرفات جاذبية . وقالت بكلمات لاسعة أطلقتها مـن فمهـا الواسع :

- نهر النيل يجري بالقرب منا .. فلا بأس أن يشرب منه من يعترض .

فما كان منه إلا أن قال :

- امرأة وقحة .

وكالت له حجماً من الشتائم التي تعلمتها من حي الإمـام الشافعي .فما كان مـن محمـود عابـدين إلا أن أنـزوي . وقاطعنا حيناً من الدهر . ثم عادت العلاقات فاترة بمناسـبة عيد من الأعياد . وقد اضطررنا لزيارته هو وعائلته حبـاً في ملاقاة أمي الرءوم . بل لعلنا كنا نزور أمي لأنها تقيم مع عائلته فتعتبر الزيارة كأنها له . كانت أمي لا تزال على قيد الحياة ، قعيدة الفراش لا تتحرك إلا فـي فراشـها زحفـاً . وكانت جاذبية تداهنها فأحبتها أكثر من وداد .وكانت جاذبيـة تدس لها السجائر من حين لآخر ، وقد تكورت في فراشها . بل كانت تبول في فراشها فتسرع جاذبية بتنظيـف الفـراش وتجفيف المشمع الذي يوضع تحت الملاءة حتى لا يتسـرب البول إلى المراتب . وتبدل الملاءة حتى لا تفـوح الـروائح الكريهة التي علقت بها . وتحميها وتمشط لها شعرها وتدس فيها ملابسها بسرعة . ووداد فـي الخـارج تمصـمص شفتيها . تتألم لأن حماتها لا تحبها بل ولا تحب أطفالها فيما

عدا بكريتها وجيدة . ولم تكن لدي وداد تلك الروح العذبـة التي كانت تملكها جاذبية . كانت جاذبية تتميز بروح تتـدفق بالود والتضحية والوفاء ولو أنها كانت لا تخدم لوجه الله إنما تقيس مصلحتها أولاً ثم يتجرع الآخرون كأس ودها وحبها .

بينما كانت وداد تنجب الطفل بعد الآخر كانـت جاذبيـة تمتنع عن الإنجاب وهي تقول بصرامة لم أعهدها فيها :

- يكفي زهيرة وبهيرة وهشام .. لن أنجب أحداً بعدهم .

- كيف ؟ .. أنا أحب العيال .

- أنت تحب العيال .. وأنا أكره الفقر .

دخل الأولاد المدارس . وبينما كانت بهيرة وهشام يتقدمان في التعليم . كانت زهيرة تتعثر . غير أنها كانت أقرب إلـى أمها منهما . وحينما أخطرتنا أن عريساً سوف يتقـدم إلينـا يطلب يدها. كانت جاذبية تكاد تطير من الفرح . كانت تدرك أنها يجب أن تتزوج الآن حتى لا تصير عانساً . لـم يكـن لديها صبر أن تنتظر لأن زهيرة لم تكن الفتاة الجميلة التـي كلما انتظرت زاد خطابها . إنما جاذبية تعرف أنهـا كلمـا انتظرت بارت تجارتها . وعارضتني حينما صـفقت بيـدي آسفاً :

- لم أر في حياتي بنتاً تأتي لأهلها وتقول لهم إن عريساً سوف يتقدم لي .

قالت جاذبية بحدة :

- لا تتدخل أنت ..

وحين حاولت أن أعترض وأقول :

- أنا أبوها يا ...
قاطعتني جاذبية وهي تقول :
- لم ينكر أحد ذلك .
كانت تريد أن تنتهي من زيجتها بأي ثمن . ولـم تسـقط الفتاة في شباك نصاب ، إنما سقطت على عرش ثري يلعب بالمال . تعرفت به وهي تعمل في المصرف المركزي ، تلك الوظيفة التي ساعدها على العمل فيها خالها المهاجر . ولعل توفيقها جاء من عند الله ، وهي التي لم تكن تملك آيات مـن الجمال تساعدها على التنبؤ بمستقبل باهر في عالم الزواج . وقد يكون زوجها من عشاق الجمال غير الصارخ وقد أعجبه فيها خفة دمها التي لا يمكن وصفها .
حينما قرر هشام أن يلتحق بكلية الزراعة ، اعترضتُ قائلاً :
- يا بني .. الزراعة اضمحلت في مصر .. الوقـت الآن للصناعة . ألا ترى أن الحكومة تشجع الإنتـاج الصـناعي وتقف في سبيل الإنتاج الزراعي .
قال هشام بصراحة :
- أنا أحب الزراعة يا أبي .. ولن أتراجع عن ذلك . وإذا كان البلد قد غاب رشده اليوم فغداً سوف يفيق ويعـود مـن جديد إلى الزراعة ويعرف فضلها .
غير أنه لم يعمل بالزراعة - كما تصورت - إنما اصبح مفتشاً في وزارة التموين . وساهم مساهمة فعالة في أعمالها مثلما ساهم زملاؤه في هذه الوزارة. ولا أدري مـا علاقـة

التموين بالزراعة ، لكن يقال إن لها علاقة .. حينما يفتشون على المخابز والمطاحن فهم يفتشون على مواد غذائية تنتجها الزراعة . ثم أصبحت وظيفته بعد ذلك مكتبية ولا صلة لهـا بالجماهير . اصبح يعمل بالمكتب الفني للـوزير . منصـب أتباهى به وسط الناس . أنا سـكرتير المدرسـة الابتدائيـة السابق . بيد أن المنصب الجديد لا يمت بصلة من قريب أو بعيد بزراعة الأرض . دفن شهادته في مكتبه ، ولـم يقـرأ عليها آية واحدة . ولعله لم يعمل بها أبداً .

وبهيرة سلكت نفس مسلكه ، وحينما سألتها ساخراً :

- هل لدى أبيك أطيان زراعية ؟ ..

قالت بوضوح :

- يا أبي كلية الزراعة لا تخص فقط زراعـة الأرض أو استصلاحها .. هناك فروع أخـرى بهـا مثـل الاقتصـاد الزراعي والتنمية الريفية .

- لكن يا ابنتي الزراعة في مصر لا مستقبل لها .

- تلك فترة مؤقتة يا أبي .. وحينما تنقشع الغمة سـوف تجد الخضرة في كل الصحاري تزحف بلا كلال .

لم أكن أهتم بالسياسة ، واستقي معلوماتي من المـذياع ، ولم أكن مثقفاً بمعنى الكلمة . لذلك كنت لا أخوض في الجدل . قد يكون ذلك أحد أسباب ضعفي .. أنني مـتعلم لا ثقافـة عنده ولا أهتم بالثقافة . ويكـون مـن الجهـل أن أجـادل المتعلمين ، لذلك كانت وظيفتي كسكرتير مدرسة ابتدائية برد وسلام علي .انحصرت وظيفتي في كتابة أسماء التلاميـذ ،

وإعداد كشوف المرتبـات للمعلمـين والفنيـين والإداريـين والسعاة ، والخضوع التام لحضرة الناظر أو الناظرة (تسمى الآن المديرة) . حياة الأرقام باعدت بيني وبين الناس . ولم يكن هناك أصدقاء أو زملاء أودهم أو يودونني بل علاقتـي بالناس تقتصر على من أقابلهم في المقهى ولا تمتد إلى اللقاء في البيت . ترفض جاذبية استقبال ضيف في بيتها إلا الأهل الحميمين . بخلاً بطبيعة الحال . فالضيف سوف يكلفها شاياً أو بناً أو زجاجة مياه غازية .. وهي تريد أن تقتصد حتـى ينتقل الأولاد إلى بر الأمان دون عثرات مالية تصادفنا .

كانت زيارة الأهل ليست عادة عندي ، لذلك كثيـراً مـا عاتبني عديلي في هذا الشأن ، وهو يسكن بـالقرب منـي . وأتعلل بالمشاغل . ولا يعرفون أي مشـاغل تعـوق مـن زيارات سكرتير مدرسة ابتدائية ينتهي عملـه الثانيـة بعـد الظهر . ويعاتبني عديلي الآخر ، وهو يسكن بعيداً عنـي ، فأتعلل ببعد المسافة وما تسببه المواصلات من إرهاق . غير أني لم أكن منطوياً على نفسي . كنت أقابل الناس وأصافحهم وأتكلم معهم أو بالأحرى يتكلمون معي وأنا استمع إليهم. ثـم يمضي كل منا إلى حال سبيله . وكانت أحاديثي تنحصر في العـلاوات والترقيـات والإصـلاحات الوظيفيـة التـي لا تنتهي .

كنا ننتظر أن يحين دور بهيرة للـزواج ، لكنهـا كانـت ترفض كل عريس يتقدم إليها ، وكنا مقتنعين بزوج أو أكثـر غير أنها أصرت ولم نتمكن من أن نفرض عليها واحدا منهم

. بعكس وداد زوجة أخي فقد تمكنت مـن تـزويج ابنتهـا الكبرى رغم اعتراض محمود على العريس . كان مهندسـا يعمل بالحكومة ، فعيره محمود براتبه القليل . لكنه بعـد أن تزوج استقال من العمل الحكـومي واشـتغل فـي شـركة المقاولين العرب ، وتدرج راتبه ، وسافر إلى الخـارج فـي أعمال خاصة بالشركة ، وتمكن أن يشتري شـقة تمليـك ، وبرز على أقرانه ، حتى كان محمود يفتخر به وسط النـاس وكان يرفضه من قبل . شتان بين موقفه قبل الزواج وبـين موقفه بعده . كثيراً ما كنت أراه يمشي في الشـارع يحمـل أحفاده أولاد وجيدة ابنته ذهاباً وإياباً . ويطوف بهـم علـى الدكاكين يشتري لهم الحلوى والملبس أو علـى الأصـدقاء ليشاهدوا جمال الأطفال أحفاده . وتدخلت وداد مرة أخـرى في زواج ابنتها الوسطى ، فقد كان محمـود يعتـرض إذ لا يميل إلى زواج الأقارب رغم أنه متزوج من ابنـة خالتـه ، لأنه يظن أن الأمراض الوراثية تنتقل بالوراثة ، فقـد كـان هناك مرض وراثي في عائلة أمي وهو ضعف السمع نُقـل إليه ثم نُقل إلى ابنه الكبير من بعده ، بيد أن السبب الحقيقـي يبدو في العلاقات التي كانت بينه وبين أخت زوجته المتوترة بل كانت بينه وبين زوجها الرجل المتدين عميق الإيمان أكثر توتراً لخلافات حول جمعية الحج التي أنشأها محمود ، لكـن محمود رضخ في النهاية طبقاً لتوجيهـات وداد . واسـتمر يعترض لأن العريس يعمل مدرساً ، والمدرسون لا مسـتقبل لهم ، وإذا به يفاجأ بعد أن تزوجت ابنته أن زوج ابنته يترك

شقته المستأجرة ويمتلك أخرى . كانت الدروس الخصوصية فاتحة خير بالنسبة له ، وكان علمه - وهو اللغة الإنجليزيـة - مفتاح أبواب السعادة . بل سافر في حياته إلى السودان ثم سافر إلى الإمارات للعمل هناك ، ولكن محمود توفي قبل أن يسافر زوج ابنته إلى السعودية . قبض محمود مبكراً فأسفنا على موته . وكانت الزيجة الوحيدة التي تدخل فيها محمـود هي زواج ابنته الصغرى لما أصر على أن تتزوج من كويتي كبير في السن . غير أن الزيجة فشلت ، ولو أن ابنته لم تدع الفرصة - فرصة وجودها في بلد نفطي السمات- تضـيع منها فتزوجت بكويتي آخر رغم أنها رزقـت مـن زوجهـا الأول ببنت جعلت إقامتها في الكويت مسموحاً بها حتى نهاية العمر . أما أخي كمال فلم يرزق ببنات أبداً سواء في زيجته الأولى أو زيجته الثانية ، لذلك لم تظهر له مشـاكل اختيـار العريس مثلما ظهرت لي بوجهها الساخر . واختتمت بهيـرة مسلسل زواج البنات باختيارها الفتى الذي تحبه . كأن يعمل معها في وزارة الزراعة . هو يعمل في الإرشاد الزراعـي وهي تعمل في تدريب الموظفين على أداء الوظائف المسندة إليهم. ولا أعرف ما علاقة هذا العمل الإداري بتلك الشـهادة التي زينت بها أحد حوائط بيتها . تفتخر بأنها حصلت علـى جيد جداً في بكالوريوس الزراعة . وفي نفس الوقـت لـن تتمكن من فلاحة حديقة دارها لو كان للدار حديقة .

استمر عدم تدخلي في حياة أبنائي أو استمر هذا الضعف معي حينما قرر هشام أن يتزوج بنت أخت جاذبية . رفضتُ

في البداية ، لكن رفضـي راح أدراج الريـاح . وشـجعته جاذبية على الزواج وأسرعت لإتمامه . ولعل الفتاة عرفـت ذلك . عرفت نبيلة موقفي منها قبل الزواج فبادلتني الكراهية بعده . وكنت أظن أن زواجها منه لن يكون موفقاً ، ولم يخب ظني .. كان هشام هادئاً رزيناً متكلمـاً . وهـي عصـبية صارخة تكتم ما في قلبها زمناً ثم تنفجر . لقد تواصلت بينهما سلسلة المشاجرات.. وفي كـل غضـبة يـذهب ليصـالحها وتتكور بطنها بعدها وترزق ببنت أو ولد . وعاشا سـنوات في هذا الجو المتوتر .. بلا أمل في أن تهدأ الرياح العاصفة . لكن ما كان يحدث هو استمرار الزعابيب . وأحياناً تتدخل أمه لتنقشع الغمة بحرارة نصائحها . وأحياناً تتدخل أمها لكن المسلسل يستمر مثل مسلسلات التلفاز التـي يتكـرر فيهـا الحدث والحوار بنفس الصورة السابقة عدة مرات حتى يجلب الملل للمشاهدين . كنت اسمع فقط عن هذه المسلسلات لأني لا أشاهد التلفاز وقاية لعيني . والحمد لله على أنـي لا أرى هذه المسلسلات. والشكر له لأن في عدم مشاهدتها وقاية من التبذير في الكهرباء ورأفة لجيبي من استنزاف المال فالتلفاز كما اعرف يستهلك كثيراً من الكهرباء .

كل هذه الصور التي سردتها تؤكد ضعفي لكنها لا تكشف عن أسبابه . هل كانت شخصية جاذبية قاهرة ؟ .. فماذا عن الناس وكنت أمامهم أبدو ضعيفاً . يبدو أننـي ورثـت هـذا الضعف من أبي أو يمكن أن أكون اكتسبته منه ، فقد كان هو الآخر رجلاً طيباً . والطيبة هي الضعف في نظر الناس . لا

أذكر أنه تعارك مع أمي أو تناقش معها بحدة . كـان مثالـي بديناً لكنه أحمر الوجه أبيضه - بعكسي فقد ورثت السمرة عن والدتي – يتميز بعينين خضراوين يشربان من ماء العسل الذهبي . ولم تكن أمي جميلة - كما قد يتبادر إلى الـذهن – غير أنها ضحوكة مرحة ساخرة دون مساس بكرامة الآخرين . أنجبت له الطفلة الأولي التي أصـيبت بشـلل الأطفـال ، فكانت أول فرحتهما غماً لكن الرجل صبر . وخفـف مـن البلوى ذكاء سعاد فقد كان يشع منها ما يجذب النساء إليها . ولو أن لسانها أصابه العوج وجعل قـدرتها علـى الكـلام والنطق السليم أمرين مستحيلين . ثم أنجبت أمي بعـد ذلـك محمود فكان تدليله أحد الأدوات التي أفسـدته . وجعلتـه لا يكمل تعليمه ويصر وهو في سن مبكرة على أن يتزوج ابنة خالته . ووضع العائلتين أمام الأمر الواقع حينما دخـل بهـا دون زواج رسمي ، فأسرعت العائلتان في إتمام الزفاف في الحال . وكان محمود قد دخل الجامعة في كليـة الهندسـة ، واضطر أن يعمل بالبكالوريا حتى يـوفي مطالـب زوجتـه الكثيرة . ثم أنجبت أمي أختي الصغرى ، فجـاءت صـورة جميلة مثل أبيها ، ولم تكن تختلف في جمالها عـن سـعاد . كلاهما يملكان العينين الخضراوين التي تشرب من العسـل ولو أن فيهما حوراً . وبياضهما شـاهق غيـر أن سـعاد أصابها ما أصابها من تعوج في الساقين والذراعين ، كـان شلل الأطفال قد شوه معالم سعاد بعنف حتى تواري جمالها ، وكانت لا تستطيع المشي فكانت تزحف بـين الحجـرات..

وفتحية تملك صحة جيدة وبدناً سميناً رخصاً . يمكن أن تتنبأ لها أنها ستعيش لما بعـد الثمـانين . وقـد كبـرت فتحيـة وترعرعت وتزوجت وهي في الثالثة عشرة من عمرها . لم تختلف حياتها الزوجية عن حياة ابني هشـام . مشـاجرات مستمرة بينها وبين زوجها في التافه وغير التافه من الأمور . كلاهما يشد حبل الآخر ويحاول أن يقطعه ولـيس بينهمـا شعرة معاوية . لكن أبي لم يكن يتدخل في الخناقـات علـى الإطلاق .. وإن كانت أمي تشعل جذوة الشجار وهي التـي تطفئها في بعض الأحيان .

ويمكن للمرء أن يكتشف طيبة قلب أبي حينما أصاب أمي لين العظام . أصبحت ضعيفة هزيلـة لا تصـلح أن تكـون زوجة تعيش على الدواء ولا تتمكن من مراقبة بيتها . ولـو أنها كانت متيقظة ساخرة وسخريتها تجعل مـن أمامهـا لا يجرؤ على الخروج على أوامرها . كانت مسيطرة وهى في فراش المرض . ورغم ذلك أنجبتني ومن بعدي كمال .

أغرقت الخدم والحاشية المحيطة بها بالخيرات فتمكنت أن تأسرهم وتخضعهم لمشيئتها . كان لها سحر خـاص حتـى وهى مقيدة بالفراش تحرك من حولها بالإشارة . يطل عليها أبي مبتسماً ويربت عليها ضاحكاً . ولا يفكـر أن يسـتبدلها بأخرى لأنها أصبحت لا تصلح . ويموت ذلك الرجـل مـن ارتفاع ضغط الدم ، بينما أمي المريضة تبقي بعده على قيـد الحياة بأمراضها وعللها أكثر من عشرين سنة . كان ارتفاع ضغط الدم عند أبي معروفاً لكنه كان مستقراً فلم يؤذه لكـن

حينما خسرت المدارس التي أفتتحها مع خالي جاءه الانهيار سريعاً وقوياً . جرفه إلى الدار الآخرة جرفاً .

أكاد ألاحظ أن طيبة قلب أبي وانصـياعه لتحقيـق كـل طلبات أمي كانت شفقة بها . لا يريد أن يـؤذي مشـاعرها فيطيعها . لم يكن هزؤاً ولم تكن تجرح كرامته . إنما كانـت تطلب منه فتجاب طلباتها دون اعتراض . حتى لا تظن أنها أصبحت كوماً من العظام والجلد الجاف المنكمش الراقد دائما في الفراش . لكن لم أتبين ابداً أنه ضعيف أمامهـا أو أمـام الناس . قد أكون مارست ضعفي تقليداً لأبي لكنه لـم يكـن ضعفاً ذلك الذي يصدر منه في الظاهر أما أنا فكان ضـعفي ظاهراً وباطناً . هكذا الأيام صبتني في قالب لم اسـتطع أن أخرج منه !! ..

الشريط الخامس

لا أنسى أبداً العز الذي كنا نعيش ننهل منه .. أيام أبـي . ولعل إسراف أمي هو الذي ساعد على أن ننعم بهذا العـز . ولعل الأسعار في ذلك الوقت كانت تسمح أن يعيش الإنسـان على راتب صغير في بحبوحة من العيش . خاصة إذا كـان الفرد له دخل ثابت كبير كموظفي الحكومة القـدامى . كـان أبي مدرساً بالمدارس الثانوية مرتبه عالياً مما ساعده على أن يجترف من السلع من السوق ما يشاء فكانت حياتنـا نعيمـاً مقيماً . وكانت أسعار السلع في ذلك الزمان هادئـة وليسـت ناراً موقدة كأسعار ذلك الزمن الذي نعيشه . كـان لا يخلـو بيتنا من أصناف الفاكهة والخضراوات المختلفـة ، ولـو أن

بعضها كان يتلف بسبب عدم وجود ثلاجة إلا فـي الشـتاء حيث البرودة تساعد على حفظ الأشياء . وكانت أمي تصرف المتبقي منا صدقة قبل أن يفسد لهؤلاء المساكين الذين كـانوا يأتون يتسولون من الست أم محمود كل يوم . ولما أشـترى والدي تلك الثلاجة التي توضع فيها ألواح الثلج فتحفظ الطعام يوماً أو يومين قل التالف من الطعام . غيـر أن الصـدقة استمرت جارية لا تنقطع .

كانت أمي قبلة النساء في الحي فكانت الدلالات يأتين إليها ليعرضن عليها الأقمشة والملابس والحرائر والثياب الداخلية ، والنسوة الأخريات مـن البيوتـات المعروفـة لا يفتئـون يزورنها ولا ينقضي يوم إلا أن تكون هناك زائـرة ومعهـا أولادها . تحاكي أمي في مسائل مختلفـة . وأولاد الزائـرة يلعبون معنا في الشارع الصغير الذي تقع فيه دارنا . كانـت أمي تشتري من هذه وتترك تلك ، وكثيراً ما اشترت لفتحيـة وأولادها . ولا تبخل أبداً على سعاد تلك التي كانت تلازمها في الحجرة كأنما حلت مكان زوجها . وكانت سعاد تتـدخل كثيراً في أحاديث النسوة وتتلقى من أمها تعنيفـاً وتطالبهـا بالصمت لكنها لم تتوقف عن التدخل . كانت سـعاد ثرثـارة وذكاؤها فارط لكن عقلها كان مشوشاً وكأنه لم ينضج بعد . وكانت لها ذاكـرة حديديـة تتـذكر الحـوادث والتـواريخ والأشخاص بما يجعل النسوة يحسدونها على ذلـك الـذكاء الفارط . ولم يكن أبي يقرب أمي بعد أن أصـيبت بلـين العظام وتكور صدرها وأنبعج ظهرها إنما كان يعيش معهـا

عيشة كلها أخوة . ولم يفكر أن يتزوج عليهـا واكتفـى أن يربي أولاده منها . كنت أنا حجر عثرة في حياته لأن غبائي لم يرد على أحد من أبنائه . كنت أحاول أن أتعلم لكني كنت مشغولاً باللعب مع أولاد الحي وقليلاً ما كانوا يتعاطفون معي ويسمحون لي باللعب معهم حتى اكتفيت بالفرجة . ربما لأنني كنت بديناً فكانت بدانتي تحول دون أن أجري عند لعب الكرة أو أجاريهم في لهوهم في الألعاب الأخرى .

بينما كانت حجرة أمي خلية نحل من النساء ليلاً وصباحاً كانت حجرة الاستقبال في بيتنا خلية نحل من الرجـال لكـن النحل يطن فيها في المساء بعد أن يعود أبي من عمله ويأخذ قسطاً من الراحة . لم يكن يهتم بالسياسة إنمـا كـان يهـتم بالعلاقات الاجتماعية وحل المشاكل للأسر المختلفة . وكـان رأيه ثاقباً يسمع الرجال نصائحه وينفذونها . كـان موقعـه كأستاذ للغة العربية والدين - خريج كلية المعلمين وجامعـة الأزهر في نفس الوقت - يساعده على اجتـذاب الكثيـر . كانت شخصيته لامعة ولم أكن أناظره في شيء غير بدانـة الجسد . وكان خالي ياسين من رواد مجلسه وأحـد الـذين توثقت علاقته به . وقد تزوج ذلك الخال من عائلة من مركز امبابة امرأة بيضاء اللون زرقاء العينين طويلة القوام رغم أن خالي كان اسمر اللون بل داكن اللون فيه سـمات زنجيـة . ولعلها الوحيدة البيضاء في عائلتها هي وأمها فقد كان بـاقي أخوتها سمر الوجوه مثل أبيهم . وكانت أختي فتحيـة مـن نصيب أحد أخوتها .. دخل شاباً هادئاً ورعاً تقياً ، وأنقلـب

فجأة إلى صفيق يميل إلى المنازعات والخناقـات بسـبب أو بغير سبب ، ولو أنه استمر يصلي ويصوم ، فكان تناقضـه الواضح مثار أسئلة لا إجابات لها في ذهني . كان كما يقـال إذا لم يجد أحداً يتعارك معه تعارك مع ذباب وجهه .

وقد طفق خالي ياسين يشجع أبي علـى تـرك الوظيفـة الحكومية وافتتاح مدرسة خاصة سماها مـدارس النجـاح ، غير أن أبي رفض وشاركه من الباطن وطفق يقوم بالتدريس في الفصول الليلية . اشتغلت المدرسة على خير ما يرام سنة أو سنتين ، ثم أنقلب الحال . هجرها التلاميذ لعـدم كفـاءة المدرسين . وكانت أجور المدرسين ضعيفة فلم يحاول واحد من الأكفاء أن يلتحق بها . وتراكمت الديون حتى شعر أبي بأنفاسه تختنق حتى كادت الذبحة الصدرية أن تقضي عليه . ورغم أنه عولج من الذبحة الصدرية غير أنها انتظرته مـرة أخري في ركن مظلم لم يره الطبيب وقضت عليه ولعلها في هذه المرة كانت هناك عوامل كثيرة تجمعت وبدأت معاولهـا تعمل بشدة ونشاط في هدم الرجل . المنازعات المستمرة بين فتحية وزوجها تبدو كالجمر المتقد ثم تتحول إلـى حرائـق تشوي الوجوه . ومرض أمي اللعين الذي جعله صابراً فـي صدر شبابه الذي لا يجوز فيه الصبر . ثم تحـرش بعـض الطفيليين في وزارة المعارف به . وأخيراً عدم قدرة مدارس النجاح من القيام من كبوتها . أضف إلى ذلك تعثـري فـي التعليم وزواج محمود المبكر وانسحابه من كليـة الهندسـة ليعمل عملاً كتابياً غير مجز .

برز محمود قوياً بعد الوفاة تساعده أمي لأنه ابنها البكر . وباع بيتاً ثم آخر من ممتلكات أبي بحجة دفع ديون أبي رغم قدرته الفائقة على التهرب من الديون ، وشاركته فـي هـذه الجريمة زوجته وداد حينما ادعت أنها فتحية عابـدين أمـام الموثق العام . وعرفنا فيما بعد أن المدرسة الخاصـة التـي أفتتحها أبي بالتعاون مع خالي عادت إلى الحياة واسـتمرت عدداً من السنوات تعمل . لا أعرف كيف دبر المبالغ الطائلة التي كانت مطلوبة وتمكن أن يعيد فـتح أبوابهـا . وكـذب محمود حينما قال إنه دفع له شيئاً من الـديون المتراكمـة . وأنكر خالي أن لنا حقوقاً في المدرسة بعد إعادة افتتاحهـا ، ولم نتمكن أن نواجه خالنا مثلما لم نتمكن أن نواجـه أخانـا الكبير.

وإزاء حادث التزوير وافتضاح انتحال شخصية فتحيـة أندلع النزاع قوياً بين زوج أختي فتحية ومحمود حتى قطـع أوصال العلاقات بينهما . ولم يدخل بيتنا بعـد ذلـك . وإن كانت أختي استمرت تزور أمها من حين لآخر مقتنعة ظاهراً أن محموداً لم يسرقها ، وإنما كان يسدد ديون المرحوم والدنا . ولو أنها كانت تسر في ضميرها ما كنت أسره أنا وكمـال أن محموداً أفاق كبير .

لم يكتف محمود بما نهبه إنما استولى على معـاش أمـي وأختي سعاد على اعتبار أنهما يعيشان في كنفه . وصـارت تشكو أمي من تعنته معها وامتناعه عن تسـليمها مصـروفاً تتمكن به من قضاء حاجاتها . وسألتها أختي فتحية :

- وما حاجتك يا أمي ؟ ..

قالت بتبرم :

- ألا تعرفين ؟ .. سجائر .. دفع صدقة لمحتاجة من الناس .

- سوف يتكفل بذلك محمود .

وكان محمود يقف على رأسها ويقول :

- سجائرك تصلك كل يوم علبة .. وهؤلاء النسوة اللاتي يسرقنك لن أمكنهن من ذلك .

كانت أمي لا تمانع أن تدس يـدها - ويـداها الوحيـدان اللذان أفلتا من لين العظام وآثاره - لتضع ما لديها من نقود في جيب جارة مسكينة . وهي تعلم أن هذا كل ما تملكه حتى تحين بداية الشهر التالي .وكانت فتحية تعاتبها علـى هـذه التصرفات . ولم تكن فتحية نفسها تنأى عن ذلك المسلك لـو عادت إلى بيتها وزارتها امرأة تطلب صدقة فتخلع قرطهـا وتعطيه إياها على أن تسدد قيمته في يوم ذي يسر لا يـأتي أبداً . لم تكن البنت تختلف عن أمها .

لما ماتت أمي لم يعد لسعاد من نصير في الدنيا ، ومكرت بها وداد وطردتها من حجرة أمنا ، وجعلتها تعيش في حجرة في الدور الأرضي منبوذة مهضومة الحقوق تلك التي سـكن فيها ابن أخي جاذبية قبل موته في حادث . غير أن الله سهل لها الحياة بأن جعل أم لطيفة ترعاها . وهي سـيدة فاضـلة أخنى عليها الدهر ، وكانت حسنات أمي تغرقها فـأرادت أن تردها برعاية ابنتها . لم تنس المرأة فضل أمي فراعت ابنتها

المشلولة . ولم تتقاض مقابل من أخـي . اكتفـت أن تأكـل وتشرب مجاناً . واستمرأ أخي محمود ذلك الوضـع . وقـد قالت أم لطيفة : سأعيش معك يا سعاد ولـن أتوقـف عـن خدمتك . قالت سعاد ولسانها لا يطاوعها فـي الكـلام : إذا كنت لا تشخرين .. فأهلا وسهلاً ..وكانت تنطق الشين سيناً . وكانت أمي قد اكترت امرأة لترعي سعاد ، وكانت تطلـق شخيراً مزعجاً . فما كان من سعاد إلا أن أمسـكت شبشـب المرأة ، وضربت به فمها بيدها العاجزة .. استيقظت المرأة مذعورة مفزوعة وقررت ألا تبقي ساعة واحـدة بالـدار . وغادرت والفجر ينطلق فيه الأذان مجلجلاً . لكن أم لطيفـة كانت هادئة الأنفاس ، تبدو كالملاك الطاهر بهـذه الغلالـة البيضاء التي تستر شعرها وتحجب لونه الأبيض عن العيون . ولم تكن مرتبطة بأحد فهي لم تتزوج لذلك بذلت الرخيص والغالي من أجل سعاد المسكينة اليتيمة .

كانت فتحية تأتي من حين لآخر غاضبة مـن زوجهـا ، غير أنها تعود حينما يأتي أبناؤها لمصالحتها . كانت وداد لا ترضى أبداً أن يشاركها مملكتها أحد . بل تنفست الصـعداء حينما حصل كمال على شهادته العالية واشتغل بالتدريس في أحد بلاد الوجه البحري . وكانت تستقبله في الإجازات على مضض رغم أنها تعرف جيداً أن هذا بيت أبيه وله فيه حقوق . والدار على المشاع كلها وسعاد وفتحية بل وأنا لنا حقـوق فيها . ولكنها نزعة حب التملك تغيب الحقائق في رحمها .

يا حسرتي على تلك العقارات التي باعها محمود . حقـاً آلت إلى أبي من جدي تاجر الأقمشة . ولم يحاول أبي تنميتها لأنه كان مشغولاً بواجبات الوظيفة . لكن لم يفكر يومـاً أن يبيع أبي الممتلكات التي آلت إليه من جدي .

جدي هذا لم يكن فيه طيبة أبي . ولا أعرف كيف تنسـلخ الطيبة من الشراسة والقسوة . كان الحاج عباس - وهذا هو اسمه - مزواجاً متلافاً ولكنه حريص على اقتناء العقـارات. وكان دخله يزيد على ما يتلفه بكثير ، ولم يفكر يوما أن يمس رأس المال وإنما كان ينميه . يمكن أن تشاهد محله لا يـزال قائماً في شارع سعد زغلول بالجيزة . أول الممتلكات التـي فرط فيها أبي وعمي وآخرها . إذ لم يكن لواحد منهما هواية أن يكون تاجراً للأقمشة فباعا المحل واتفقـا علـى تقسـيم العقارات. ثم أنفصل أحدهما عن الآخر فبينما استقر عمي في العباسية الشرقية في إحدى الدور المستقلة هناك . استقر أبي في دار أبيه في الجيزة ولم يغادرها إلا عند الرحيل الأخير .

جدي عباس كان مزواجاً جمع بين أربع نساء ، لكنه لـم ينجب إلا عابدين وعماد الدين . وصمم منذ اليوم الأول مـن مولد عابدين أن يسير ولده في طريق التعليم وتبعـه عمـاد الدين . والغريب أنه أنجبهما على كبر . ولو أنه عاش أكثر من تسعين سنة . وكان يدير محله بنشاط ويقظة تماثل نشاط ويقظة ابن العشرين . ولعل محمود وكمال ورثا عنـه هـذا النشاط الدائب . أما أنا فكنت خاملاً منذ نعومة أظافري لا هم

لي غير الأكل والإفراط فيه . لقد تسللت إليهما بذور الحركة من ذلك الرجل ولم تحاول أن تنفذ في جسدي المترهل . بل إن هذه الحيوية التي كانت تخص جدي عباس انتقلت من أبي إلى فتحية رغم أنهما كانا بدينين مثلي . كانت فتحية لا تكـل عن العمل في بيتها تطبخ وتمسح وترعى أولادها رغـم أن لديها أكثر من خادم .

وحينما زوج جدي أبي من بنت أحد أصدقائه خضع أبـي لمشيئته خضوعاً كاملاً . غير أن عماد الدين رفض أن يكون مطية في يدي جدي ، فهجره ليقـيم فـي دار مسـتقلة فـي العباسية وأنعزل عنا . وتقطعت الأسباب بين الأخوين ، ولم تتصل إلا بعد وفاة جدي . ولم يفكر جدي أن يحرم ابنه عماد الدين من الميراث واستسلم لهجرانه دون عقـاب . اقتسـما الأخوان الميراث ثم عادا يفترقان من جديد . ولا يلتقيـان إلا في المناسبات. وتقطعت الأسباب بيننا وبين أبنائه وبناتـه إلا حينما يهل العيدان أو يطل علينا رمضان .

لم يحدث أن أعترض أبي على جدي حينمـا أبلغـه أنـه سيزوجه ، فقد كانت قسوة جدي ، ولسانه اللاذع يمكنهما أن يلجما لسان أبي ويجعلاه يرتعش خوفـاً . ولـم يكـن أبـي ليعترض على جدي حينما يبلغه أنه تزوج ، وكان يذهب إليه ليباركه على زيجته الجديدة . غير أن جدي لم يكن يبقي على الزوجة الجديدة أكثر من سنتين ثم يزهدها ويطلقها ، ولكنـه لم يطلق زوجته الأولى أم والديه إنما كان يعود إليها في كـل

مرة نادماً ساخطاً على أفعاله . ثم يهـدأ وتهـدأ العلاقـات المتوترة بينهما ثم يعود سيرته الأولى . .

لم يحدث في عائلتنا مثل هذا التصـرف إلاّ نـادراً فقـد تزوجت واحدة وتزوج محمود واحدة . أما كمال فقد خـرج عن هذه القاعدة وتزوج المرأة الأولي وفشلت الزيجـة أمـا الزيجة الثانية فقد استمرت حتى هذا الحين أكثر من عشرين سنة .

عائلة عمي عماد الدين حدث فيها اختلاف . كـان أحـد أبنائه - كبيرهم - قد تزوج أرملة لها ولد وبنت من زوجها الأول وعاش معها دون طلاق ودون إنجاب . وكان السـبب يرجع إليه ، فقد صرح أنه عقيم . ولعل ولدا أرملتـه كانـا بمثابة العلاج الذي يداوي جراح الزمن . أما أخوه الآخر فقد بلغ عدد زيجاته خمس عشرة امرأة ، وعدد أولاده تسعة من زيجات مختلفة . ولا يزال رغم دنوه من السـبعين لا مـانع عنده أن يطلق واحدة ويتزوج من امرأة جديـدة .المهـم أن تدخل المرأة في رأسه ولا تخرج منها ، تعشش في خياشيمه كما يقول . ولا أهمية لمواصفاتها . كانت آخـر مغامراتـه زواجه من الممرضة التي كانت تسهر علـى علاجـه مـن مرض جلدي ألم به . أما أخواته البنات فلا اتصـال هنـاك بيني وبينهن . ولا أعرف شيئاً عنهن . ولكن وصـل إلـى فتحية أنهن لم يطلقن ولم يتزوجن غير زيجة واحدة حتى أن واحدة منهن مات زوجها واستمرت أرملة ترعى أولادها .

لقد جاءوا جميعاً في مأتم محمود ، غير أنهم اختفوا مـن جديد وفقدوا الود بيننا وبينهم بعد الأربعين . وإن كانت فتحية أختي لا تزال تودهم وعلى اتصال هاتفي بهم . كان يودهـا المزواج بعد أن أصبحت أرملة . لكنه لم يفكر أن يعـرض عليها الزواج خشية غضب ابنها الكبير وبناتهـا الكبيـرات. لعله كان يزورها ليشاهد جمالها الذي لم يذبل . ورأيته يوماً عندها وأنا أزورها في إحدى زيـاراتي النـادرة . وكانـت المرحومة جاذبية لا تزال على قيد الحيـاة . وتأكـد لـي ولجاذبية أن الرجل عاشق لفتحية لكـن مكسـور الجنـاحين وساقط اللسان لا يجرؤ أن يفاتحها في مكنون قلبه . خاصـة أنه قد طلق امرأته الممرضة البدينة وكـان قـد رزق منهـا بطفل . بوهيمي يعيش يرضي ذاته ونزواته .

هؤلاء هم أبناء وأحفاد جدي عباس . وأؤكد أنه لم تنشـأ بيننا وبينه علاقة حميمة . فقد كان فظ الطباع لكنه لم يكـن يبخل علينا بقرش صاغ لكل واحد منا حينما نزوره في دكانه صدفة . بل كان يرسل إلينا الأقمشة اللازمـة لبـدل الأولاد ولفساتين العيد لسعاد وفتحية . غير أنه مات ولم يكـن فـي قلوبنا قد تكونت نحوه أي عاطفة . لا حبـاً ولا كراهيـة . وكانت سعاد الأخت الكبرى قد بلغت الحاديـة عشـرة مـن عمرها . لا تزال تترنح في زحفها ولا تـزال تتهتـه . ولا تزال تثير شفقة الجميع . ولا أعرف ما إذا كانت تحس بعذابها أم أن الوضع اصبح لا يثير أي ألم في صـدرها . لعل السبب في ذلك أنها ترعرعت على هذه الحالة فلم تـذق

طعم الصحة ولم تعرف معالمها فلم يؤلمها أن تكون مختلفـة عمن حولها من البشر .

الحقيقة أنني استمررت وقتاً طويلاً أقول لزملائـي فـي المدرسة حينما أمر على دكان جدي . أن هذا دكان جـدي . وأشير إليه رغم أن صاحبه يختلف اسمه عن اسـم جـدي . ولكن كان ذلك أسلوباً من أساليب الفخر خاصة أنني لم أكـن أملك شيئاً ولا حتى شهادة لائقة أفتخر بها . ضيعني غبـائي في هذه الحياة . وكان أخي محمود ذكياً لكن شهواته قتلـت ذكاءه وجعلته يغادر كلية الهندسة غير عابئ بالمستقبل المظلم المحدود . ورافضاً أن يكون مهندساً مرموقاً في يـوم مـن الأيام . كان المهم عنده أن يضم وداد إليه ويتمتع بجمالها . أما كمال فكان أكثرنا ذكاء لكن لم يكن في حياته لامعاً .

الشريط السادس

إذا لم يكن ضعفي راجعاً لأبي ، لأنه كان لماحا ذكياً ذا صوت خفيض . لكن كل الناس تعمل له ألف حساب ، كانت له هيبة لم أكن أملك مثلها . وكان خضوعه لزوجته راجعـاً إلى تلك الشفقة التي لازمت قلبه نحوها حتى لا يزيدها ألماً على ألم بعد أن خاضت في بحار الألم مـن هـذا المـرض اللعين الذي أصابها . وإذاً لم يكن ضعفي راجعاً إلى جـدي لأبي ، فقد كان شخصية فريدة فردية تختلف عن الآخرين . كانت القسوة والسيطرة وفرض الرأي من أسس شخصـيته . وهي صفات لا تتوافر في . قد تكون طيبة قلبي واسـتكانتي راجعين إلى جدي لأمي . فقد كان - هو الآخـر - يعمـل صاحب محل أقمشة ولم يكن كجدي لأبـي يهـش الـذباب ويقبض النقود إنما كان يساعد البائعين في محله . ولم يكن محله يمكنه أن ينافس محل جدي عباس ، فقد كـان محـلاً صغيراً لا يعمل به إلا عامل أو عاملان ، يعاملهمـا برقـة وحنو يستغربهما فيه جدي عباس . غيـر أن محـل جـدي عباس كان واسعاً طويلاً عريضاً به أكثر من خمسة عمال أو ستة عمال . كان جدي لأمي المخلوفي نحيفاً ضعيفاً طيـب القلب . لا أذكر يوماً أن ذهبنا إليه فهشنا . إنما كأن يأخـذنا في حضنه ويحملنا الهدايا . إن لم تكن أقمشة في المناسـبات المعروفة كالعيد الصغير أو العيد الكبير فإنها حلوى . حينما ماتت زوجته ظل على الوفاء لها ولم يتزوج . ولكنها ماتـت في سن مبكرة فلم أتبين قدرة النساء على السيطرة عليه ، بيد

أن جاذبية جاءت وفاتها وأنا أدنو من السبعين ، فكان جـدي قادراً على أن يلبي احتياجاته بنفسه . بل كان لديه كثير مـن الخدم . أما أنا فلم أعد مستطيعاً أن أرعى نفسي ولا أستطيع أن أستأجر خادماً فالخدم يطالبون في هذه الأيـام بمبـالغ إذا دفعتها فسوف تستنزف معاشي .

كان جدي المخلوفي يعامل النـاس بالحسـنى والصـوت الخفيض . لم يك يختلف عن أمي في الشكل . أسمر الوجـه به كثير من البثور . وضبه واضح . بيد أن أمـي كانـت تختلف عنه في خفة الدم . ولو أنه لم يكن ثقيلاً لكـن ميلـه للصمت كان يبعده عن مجال الفكاهة والمداعبات البريئـة . وكانت إذا ما جاءت فتحية معنا وهي ذات وجه مشرق يغدق علينا كثيراً ويلاطفها ويداعبها ويخرج عن وقاره احتفاء بها ، فكنا نجبر فتحية على المجيء معنا رغم أنها كانت تتحمل أعمال الدار بدلاً من أمها المقعدة . وتـأمر وتنهـي الخـدم الكثيرين الذين يحيون في كنفنا رغم أنها لم تتجاوز الثالثـة عشرة . وبعد أن تزوجت صرنا نأخذ أولادها معنـا حتـى يغدق علينا جدي الكثير . وكانت ابنتها الكبيرة أكثر جمـالاً منها . ورثت عن أبيها عينيه الواسعتين ، واستقرت العينـان الخضراوان المشربان بالعسل في محجريهما وارثة إياهمـا من أمها . لقد تركتها تعيش معنا وكان أبي سعيداً بها . وقـد تركتها أمها معنا حتى تتفادى شجارها مع أخيها وهو شجار دائم لا يهدأ .

وسمعنا فيما سمعنا عن جدي المخلوفي أنه كان يقـرض الأسر قروضاً حسنة . وكان يقسط في دفع أسعار الأقمشـة دون ربا . مما كان له أثره فيما بعد في بوار تجارته . وقـد نتج ذلك من طيبته الشديدة ، لذلك لم يترك شـيئاً لورثتـه . أمي وخالتي وخالي . كانت أمي تعيش في كنف أبي وهـو رجل طيب عاملها معاملة حسنة . غيـر أن خـالتي كانـت تعيش في حمى رجل مريض لم يتمكن أن يقـاوم ضـربات الموت التي تسبق قدومه . ومات عن ثروة كبيرة غيـر أن اخوته نهبوها عن آخرها . كان زوج خالتي أم حسين يعيش بجوارنا في الجيزة ، ويذهب إلى بلدته يجلب الثمار للبيع ، ويعود بها على عربات تدفعها الجياد . ثم قرر أن يستقر في قريته . وجاء لجدي المخلوفي وقال له : لقد تعبت من السفر والذهاب والإياب . سآخذ زوجتي وأولادي لأحيا في قريتي . أجابه : كما تشاء يا ولدي .. علـى الأقـل تكـون بجانـب أملاكك .

استقرت خالتي وولديها وابنتيهـا فـي قريـة زوجهـا . واشتدت عليه العلل ، ولا أعرف لم لا تشتد علي حتى ألحق بجاذبية زوجتي ، ثم قضى نحبه . وحينما حاولت أم حسـين أن تضع يدها على أملاك زوجها ، برز لها أخوة زوجهـا ، وكذبوا أن له أملاكاً وادعوا أنه باعها لهم حتى يصرف على مرضه . واستعانت بأبيها أن ينقذها من هذه الورطة . قفـل محله ولم يكن يقفله أبداً ولا حتـى يـوم الجمعـة إلا لأداء

الصلاة . وهناك دارت المناقشـات بـين الأخـوة وجـدي المخلوفي . وأخيراً قال لهم :

- إن أموال اليتامى إن لم ترد ستكون وبالاً عليكم . بسم الله الرحمن الرحيم " أرأيت الذي يكذب بالدين فـذلك الـذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين .. " أو قال تعـالى سبحانه : وأما اليتيم فلا تقهر وأما السـائل فـلا تنهـر . " اعتبروهم سائلين لكـم . غيـر أن قلـوبهم الحجريـة لـم تتحرك . كانوا غلاظ القلب . سفحوا أموال اليتامى . وعـاد جدي إلى بيته وآواهم فيه وتكفل بهم .ولم يفكر أن يدخل في دعاوى مع هؤلاء العتاة في أكل أموال اليتامى . وقد شعرت خالتي أم حسين بالرخاء وهي تعـيش فـي كنـف جـدي . وتمكنت أن تدفع أبناءها للمـذاكرة حتـى ألتحـق حسـين بالمهندسخانة مثله مثل محمود ولكن تخرج فيها. أما سعد فقد خاب خيبتي ، ولو أنه لم يكن بديناً مثلي حتـى يتعللـوا أن غباءه راجع إلى سمنته كما كانوا يدعون بالنسبة لي . تعثـر في دراسته لكنه أكمل البكالوريـا . وتخـرج حسـين فـي الهندسة ، ليعمل في وزارة الأشغال العمومية . بينما لفظـت المدرسة محمود فبحث عن وظيفة كتابية يعمل بها . وكان قد لاف بالبنت الصغرى وداد حتى تزوجها وهو لا يزال طالباً في الجامعة . ثم شغلته مشاغل الزواج ، فطلب من أبيـه أن يبحث له عن عمل حتى يتكفل بزوجته . أما ابنتها الكبيـرة فقد تزوجها أحد زملاء أبى في العمل المدرسي . كان رجلاً ورعاً ، كثير الذرية . وكانت ذريته من العلماء النابهين فيما

عدا واحد فقط تعثر مثل عمه . ولو أنه ألتحق بكلية الحقوق . واستمر يدرس بتأن . يحكمه جهاز عصبي ثائر . جعله في يوم من الأيام أن يقدم على الانتحار . وبحثت الشرطة عـن أهله ولما لم يجدوها أمر المأمور بدفنه في مقابر الصـدقة بالمنيب . وقد تعذر على الشرطة معرفة عنوان أسـرته ثـم أهتدي والده إلى مقبرته وبكي كثيراً وظن أن معاملته له هي السبب في إقدامه على الانتحار ولم يكن يعرف أن الولد لـم يتحمل الحياة .

مات جدي لأمي وقد أدى رسالته نحو خالتي وأبنائهـا . وبقيت خالتي في كنف ابنها الكبير .وكان قد تخـرج وأثـث شقة فاخرة . وبدأ يبعثر في الأموال . وتعلق قلبه براقصـة في الإسكندرية فصار يودها كل أسبوع . يسافر قلبـه إليهـا قبل أن يسافر جسده . ويعود تاركاً روحه معها حتى يلحـق بها في الأسبوع الثاني . وعرفت أمه القصة فسعت في عائلة زوج فتحية عن زوجة ، فوجدت ابنة أخت زوجهـا ، فتـاة رقيقة كسيرة ، أنكسر قلبها بوفاة أبيها وزواج أمها من آخر ، ولو أنه كأن شيخاً عطوفاً ، لكن الفتاة كان تتعذب من زواج أمها بعد موت أبيها ، وتحولت الفتاة المنكسرة إلـى امـرأة سليطة اللسان تستطيع أن تتكلم في المهم وغير المهم دهـراً دون أن تكل . وكانت وقحة جلياطة أذاقت خالتي الأمـرين لكن حسين كان مستسلماً لا يقوى على ردعها. كان قلبه قد أنكسر وأهله أجبروه على الزواج ، ولم يكن يملك حجة يمنع بها هذا الزواج ، ويؤكد أن قلبه مشغول براقصة ، فاستسـلم

للزيجة الكئيبة . لم يختلف حسين عني . كـان هـو الآخـر ضعيفاً ولو أنه ذكي . وبينما بقيت أنا في الجيزة أعاني مـن زوجة متسلطة ولو أنها مؤدبة إلى حد ما ، كان هو قد سافر إلى الكويت وهناك غرق في العمل حتى يتجنب تلك الزوجة المستبدة سليطة اللسان . وبينما جاذبية قد حددت نسلها بثلاثة أولاد ، كانت هواية زوجة حسين إنجاب الأطفال كأنما كانت تقتل بهم ملل الوحدة . حتى رزقت بست أطفال . والغريب أن يكونوا كلهم متوقدي الذكاء ، لا يختلفون عن أبناء أخـت وداد النابهين . أما خالتي فقد عاشت في كنف ابنها الصـغير مع زوجة خضوع متدينة ، تفترق كثيراً عن زوجـة ابنهـا الكبير خاصة في دماثة الخلق . وكانت خالتي - من حـين لآخر- تزورنا وتقيم مع ابنتها وداد فترة من الـزمن ، ثـم تعود من جديد إلى ابنها الأصغر . وقد استمرت على هـذا الحال حتى بعد أن ماتت أمي . وكانت زوجة سـعد تنجـب طفلاً كل سنة مثل زوجة أخيه حسين وقد كانت ترزق بأولاد ذكور ولما رزقت ببنت كفت عن الولادة والحمل .

لم يفكر حسين أن يطالب أهل أبيه بالثروة المنهوبة . ولم يحاول سعد أخوه أن يفعل شيئاً ، رغم أنه كان متكلماً صعب المراس شديد الصلابة متعجرفاً في بعض الأحيان . لقد أيقن الجميع أن الثروة ضاعت ولا سبيل إلى استردادها ، فـالحق يحتاج للمطالبة به إلى القوة المالية والمستندات الموثقة وهـم لم يكونوا وقتها يملكون هذه القوة . وكان من الممكن بعد أن عمل حسين في الكويت أن يطالب بالحق ، لكنه كان ضعيفاً

لا يحب المشاغبات ولا يميل للدخول في قضايا . مـن أيـن جاءه هذا الضعف ؟ .. هل يكون من جدي لأمي المخلوفي . قد يكون ذلك كذلك . لكن هل الضعف والطيبة يورثان يا أبا الأفكار ؟ .. إن الضعف جاء إليـك مـن هضـم حقوقـك واستسلامك لهذا الهضم لأنك تخاف من المطالبة وما تجـره من مشاحنات ، آثرت السلامة على الجهاد في سبيل الحق . والطيبة جاءت إليك من قـواك المحـدودة فجعلتـك مقيـد التصرفات تخشى أن تقدم على شيء فتصاب بنكسة كبيرة . حتى حظك كان محدوداً . ولو كنت جريئاً تتخطى الحدود لما كان هذا هو حالك . ألم يكن سعد ابن خالتك محدود الـذكاء مثلك ، لكنه تمكن أن يشتري سيارات أجرة طفقـت تعمـل باسمه وتمكن أن يزوج بنته ويفيد أبناءه الذكور . أما أنت فقد استقطعت من معاشك عشر جنيهات لتتمكن أن تزف البنـت الكبرى ثم البنت الصغرى . ويا ليت ذلك أثمر في نفسـيتهما إنما كان الجزاء نكران الجميل . حقاً عادت إليك الجنيهـات العشر وأنت في سن السبعين ، لكن ذلك لا ينفي أبداً ما قمت به من واجب نحوهما .. فكان الثواب استنكاراً أن تعيش في حضن أحدهما .

لعل الاستثناء الوحيد على نموذج جدي لأمي هو خـالي ياسين . فقد كان قوياً صلباً متحركاً . ينتقل من محافظة إلى محافظة أخرى . وخطب في المنيا ابنة رجل يعمل في السكة الحديد ، وتزوج في مصر . وكانت الفتاة بيضاء اللون وهو غامق السمرة . وطعم شجرة العائلة بفروع من عائلة زوجته

. تزوجت فتحية أختي أخا زوجته . وتـزوج حسـين ابـن خالتي من بنت أخت زوجته . وتزوج كمال - أخي - فـي بداية حياته العملية ابنة خالي ياسين لكن زواجه خاب خيبـة كبرى بعد وفاة خالي وإنجاب ثلاثة أولاد . كان لا يريـد أن يطلقها ولكن أُجبر على ذلك تحت تهديد من ابنـة خـالي أن تحيل حياته جحيما . لم يكن كمال قادراً علـى أن يطلـق . وأجبرته على الطلاق في فورة غضب . ولم يحدث ذلـك إلا وخالي ذو الشخصية القوية قد وضع رأسه وضعاً لا نهوض منه . لأقفل المسجل الآن فأنا أسمع دقاً شديداً على الباب .

الشريط السابع

جاء الأولاد أخيراً . ضمني هشام إليه بقوة وطفق يقبلنـي والدموع تنهمر من عينيه . كن رجلاً لا تبك . هكـذا كنـت أقول له دون صوت . وأنا أبكي أنا الآخر . وقبلتني زهيـرة وبهيرة عدة قبلات باشتياق . ونظروا إلى الشقة الخاوية على عروشها التي جردها هشام من الأثاث ولم يبتاع غيره ويرده إلى البيت .

جلسوا حولي على المقاعد الثلاثة التي اشتريتها ، وتعمدوا ثلاثتهم أن يكونوا بالقرب مني وأنا أجلس في الفـراش . لا يريدونني لديهم في بيوتهم لأن أزواجهم معترضون . ولكـن لن يبخلوا علي بالجهد ولن يتخلوا عني .. سوف تأتي واحدة لتجهز لي الطعام كل أسبوع وتأتي الأخرى بعدها بأسبوع . ولو كان هشام يجيد الطبخ لما تأخر ، لكنه سيحاول أن يقنع نبيلة أن يكون لها دور في خدمتي . بل إذا سنحت الفرصـة

فسوف تمر واحدة منهن على يوميا فـي أسـبوعها لقضـاء بعض المطالب البسيطة .

قلت بهدوء :

- فكرت أن أدخل ملجأ للعجزة .. لكني وجدته غالياً ، لا يفي معاشي بمصاريفه .

قال هشام بحدة :

- بيتك مفتوح يا أبي .. فلا تقفله .. وسوف أشتري لـك أثاثاً جديداً بدلاً من الذي بعته .

- كثر خيرك .

خرجوا ولا أعرف كيف تآلفوا . وكان قد أقلق الأختان أن تمتلك نبيلة الشقة التي أسكنها . إذا ما تبرعت ببناء سـقفها . وثار الأختان في هاتفيهما حتى تراجع هشام مخذولاً . ولـم تفكر أن تتبرع نبيلة بمالها ما دام أن لا مقابـل لـه ، فـإذا فرض وبنت السقف وجاءت لتعيش في هذه الشقة العاريـة ، فسوف يأتي يوم أنتقل فيه إلى الرفيق الأعلى ، وتأتي الفتاتان الوارثتان مثل هشام وتطردان الابن والزوجـة وأولادهمـا فكأنها لم تطل عنب الشام ولا بلح اليمن .

جاء كمال بعد أن خرجوا . وقص لي دوره الهمـام فـي تأديب أبنائي وتهذيبهم ، فكم من مصاريف صرفتها علـيهم حتى جعلت منهم أناساً أصحاب كفايات وشـهادات . وكـم تكبدت من سهر الليالي أنا وأمهم من أجل أن يحيـوا حيـاة هنيئة وأن لا يغزو المرض قلوبهم . ومن العار أن يتنكـروا لي في هذه الأيام الأخيرة من عمري . وهو تنكر لا سبب له

ولا أساس . وجاء ثلاثتهم يطلبون الصفح ويندمون على ما اقترفوه في حقي . لكنهم كانوا قد تركوا في نفسـي جرحـاً عميقاً ولو أنه بلا صديد ولا نزيف . كلما لمسـته ذكريـاتي أشعر به عميقاً .. عميقاً .. يبعث ألماً حاداً ساخناً عنيفاً .

نمت في تلك الليلة أحلم بالموتى . رأيت جـدي يعطينـي قرشاً فأقول له :

- القرش أُلغي يا جدي .

يقول بوضوح :

- هذا قرش من ذهب .. سل أصحاب الصاغة يقولون لك ما ثمنه . في زماننا كنا نتعامل بالذهب . وأنا أعطيـك مـن زماني ، فلا تحسبه شيئاً رخيصاً ، أحسبه بقيمته في زمانـك تجده شيئاً كبير القيمة الآن .

ثم شاهدت أبي يمسك بي ونحن أمام دكان جدي ويقول : هيا معي .. أريد أن آخذك إلى مكان أمين .

- لا .. اتركني يا أبي .. لقد عدت إلى بيتي .. وسـأبقى فيه حتى   أموت .

- لا تكن أبله .. سوف يكون المكان الجديد به خدم وحشم .. وسوف ..

وتمسك أمي بيدي الأخرى وتقول :

- هيا .. هيا .. لا تتردد .

أنظر فأجدها مثلما كانت في سن الثلاثين .. تقـف علـى قدميها . لم يمسها بعد لين العظام وتكـور الصـدر ونتـوء الظهر . وأرى وجهها الأسمر مضاء بنور يلمع .

يتكاثر على عمي عماد الـدين ، وزوج أختـي فتحيـة ، وأخي محمود ، وأختي سعاد تلك التي لم تتحمل موت أمـي الرءوم فلحقت بها في غضون سنة . ويقولون جميعاً :

- أمض .. أمض مع أبيك .. لا تكن عنيداً . لأول مـرة أرفض أن أذهب لا أنقاد إليهم.. أيـن ضـعفي وانصـياعي للآخرين . لأول مرة لا أطيع . وينفضون من حـولي وهـم يقولون : اتركه يا شيخ عابدين وشأنه .

واستيقظ من الحلم .

يقال إن الإنسان في خواتيم أيامه يتكاثر عليـه المـوتى وينادونه ليذهب إليهم.

الرياض في ١٤ / ٧ / ١٩٩٠